

لانسون / مابيه

منهج البحث فى الأدب واللغة

ترجمة: محمد مندور

ميراث الترجمة

2803



يعرض هذا الكتاب لمنهجين من مناهج البحث فى الأدب واللغة؛ حيث يتناول الأستاذ لانسون البحث الأدبى؛ ليدلل على أصالة المنهج الأدبى وتميزه عن غيره من المناهج، وإمكانية إفادته من العلوم الأخرى.

أما المنهج الذى يقدمه الأستاذ مابيه، فهو كفيل بأن يفتح للدراسات اللغوية مجالات لمٍ تكن تخطرٍ ببال. وقد خط فيه بعد طول مراس طريقًا كاملاً لتناول اللغة منٍ عناصرها الصوتية الأولى إلى حقائقها المركبة جملاً وفقراتٍ.

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن

منهج البحث فى الأدب واللغة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

ترجمات مندور

- العدد: 2803
- منهج البحث فى الأدب واللغة
- لانسون، وماييه
- محمد مندور
- طارق مندور
- 2015

هذه ترجمة دراستين:

١- منهج البحث فى الأدب لـ "لانسون"

٢- منهج البحث فى اللغة لـ "ماييه"

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

منهج البحث فى الأدب واللغة

تـأليف: **لانسون مابيه**

ترجمة: **محمـد مندور**



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مايبه، لانسون.
منهج البحث فى الأدب واللغة/ تأليف: لانسون مايبه، ترجمة: محمد مندور.
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥
١٢٠ ص، ٢٠ سم
١ – طرق البحث.
٢– العلوم – البحوث.
٣– الأدب.
٤– اللغة.
(أ) مندور، محمد (مُترجم)
(ب) العنوان ٠٠١,٤٢

رقم الإيداع: ٢٠٢٩٩/ ٢٠١٥
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 413 - 0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تقديم

عن المترجم والترجمة

مما يلفت نظر القارئ أن مترجم هذا الكتاب قد قدم له تقديمًا وافيًا بما عرف عنه من دقة تحليله وموضوعيته، وسبر أغوار فنون الأدب والنقد العربى القديم، فلقب بشيخ نقاد العرب المحدثين.

كانت ترجمته لهذا الكتاب لحرصه البالغ على التواصل والإفادة من تجارب الآخرين، ومن التقدم المنهجى الكبير الذى أحرزه الباحثون الأوربيون فى مجال الأدب فى ذلك الزمان، وكان رأيه أن هذه الإفادة لن تكون صحيحة وسليمة وعميقة وواعية إلا بعد دراسة تراثنا العربى القديم فى الأدب والنقد وعلوم البلاغة المختلفة، حتى تقوم استفادتنا على أساس من المعرفة بنواحى تلك الاستفادة استكمالاً لما ينقصنا.

وعندما تقرأ الناقد والمترجم د. محمد مندور فى مقدمته للكتاب تدرك كيفية سعيه لتكون مناهج البحث تتجاوز كونها قيمة نظرية، بل لابد لها من أن تكون جزءًا من الممارسة الشخصية لأنها لا غنى عنها لتسديد الفكر النظرى وإحكام تناوله للواقع، بعكس ما يتبدى فى المناهج الفلسفية التى تتوقف فقط أمام الأسس النظرية لكل منهج من مناهج تحليل عمليات التفكير العامة.

وقد انضم مندور للجنة من أساتذة جامعة فاروق (الإسكندرية) لترجمة الكتاب الأم "De la methode les sciences" وهو كتاب يعالج مناهج البحث فى العلوم المختلفة وهو مؤلف من جزأين، كل جـزء نحـو ٥٠٠ صـفحة، نشرهما فى باريس بيت النشر "فليكس ألكان" ووزعت اللجنة أبواب الكتاب على الأساتذة كل حسب اختصاصه، ولكن للأسف لم يكتمل مشروع الترجمة، بل إن مندور يقول: "لم أدر إلى اليوم ماذا أنجز زملائى، بـل لا أعلـم هـل ابتدأوا العمل أم لا" لأن مندور كان قد استقال من الجامعـة عـام ١٩٤٤ وعمل بالصحافة.

كان من نصيب مندور ترجمة منهج البحث فى الأدب لـ "لانسون" ومنهج البحث فى اللغة لـ "ماييه" وهما معًا يشكلان محتوى الكتاب الـذى بين يديك.

وكان أن قرر مندور أن يضم هذا المترجَم لكتابه (النقد المنهجى عند العرب)، بدءًا من الطبعة الخامسة وهو الكتاب الذى يعالج تيـارات النقـد العربى فى القرن الرابع الهجرى، وهو موضوع رسالته للـدكتوراه عـام ١٩٤٣ ليحقق الإفادة المرجوة. وكان قد نُشر كتاب (منهج البحث فى الأدب واللغة) للمرة الأولى فى بيروت عن دار العلم للملايين عام ١٩٤٦.

وقد كانت تجربة الدكتور مندور بين أبرز التجارب المعرفية والنقدية؛ حيث جمع بين دراسة الأدب العربى، والقانون، والاجتمـاع، والاقتـصاد السياسى؛ والتشريع المالى، بل عكف على تلقى محاضرات فـى جامعـة

السوربون عن الموسيقى والعمارة والفنون التشكيلية، وأجاد اليونانية القديمة والفرنسية وآدابهما وفقههما المقارن وأيضا أجاد الإنجليزية وترجم عنها كما اهتم بتعليم لغات أخرى، كما أجرى بحوثًا فى الصوتيات عن بحور الشعر العربى.

وقد شكلت هذه المعارف العميقة لدى مندور تصورًا متكاملاً لكل القيم الإيجابية والأدوات التى لا غنى للناقد عنها، فاحتفظ من المرحلة التأثيرية بالذوق المدرب، ومن المرحلة الموضوعية بالمعرفة العقلية بوصفها أداة لتحليل مصادر الذوق وتبرير انطباعاته وأحاسيسه الجمالية، ثم أضاف ما تنطوى عليه المرحلة الجديدة من التزام بالقيم الاجتماعية والوعى المتجدد بالعصر ومشاكله. فهو لم يتخلص من مراحله السابقة وإنما أفاد منها وامتزجت جميعًا فيه، ومن ثم تشكلت نظريته النقدية المتكاملة .

وقد شكل كل هذا امتيازًا وقراءة نادرتين كللتا المشروع الفكرى والنقدى للدكتور محمد مندور على مستوى انحيازاته الجمالية والمعرفية، بحيث إننا اليوم نتكلم عن واحد من أبرز من شكلوا العقل النقدى العربى فاستحق بجدارة لقب "شيخ النقاد العرب"

د. طارق مندور

مقدّمة

منذ سنتين ، وقبل ان أترك الجامعة المصرية للاشتغال بالمسائل العامة ، كانت وزارة المعارف المصرية قد فكّرت في ترجمة كتاب نفيس يعالج مناهج البحث في العلوم المختلفة هو كتاب «De la methode dans les sciences» المؤلف من جزئين يقع كل منهما في نحو خمسمائة صفحة من الحجم المتوسط ، نشرهما في باريس بيت النشر الشهير « فليكس ألكان » .

وألّفت بالفعل لجنة من أساتذة الجامعة كان كاتب هذه السطور من بين اعضائها وتوزّعت اللجنة أبواب الكتاب ، كلّ حسب اختصاصه ، ولكنني لم أدرِ الى اليوم ماذا أنجز زملائي ، بل لا أعلم هل ابتدأوا العمل أم لا .

وهذا الكتاب يعتبر فريداً في بابه لا لأن مناهج البحث في العلوم لم يسبق التأليف فيها ولكن لأن له ميزة جسيمة على ما

يكتب عادة في هذا الموضوع الهام .

ومناهج البحث إنما يتناولها ، عادة ، الفلاسفة إذ يفردون لها في مؤلفاتهم باباً أو جزءاً باسم Methodologie، وفيه يتناولون الأسس الفلسفية لكل منهج في كل علم بعد الفراغ من تحليلهم لعمليات التفكير العامة . وإنه وإن تكن لتلك الأبحاث قيمتها إلا انها في الغالب قيمة نظرية . وذلك لأن كاتبيها فلاسفة لم يتخصصوا في تلك العلوم المختلفة التي يتحدثون عن مناهجها . ولما كانت الممارسة الشخصية شيئاً لا غنى عنه لتسديد الفكر النظري وإحكام مأخذه على الواقع ، فان كتاباتهم يمكن القول عنها بانها ثقافة عقلية ورياضة للفكر اكثر منها قيادة عملية وتوجيهاً لخطى البحث .

وعلى العكس من ذلك الكتاب الذي نتحدث عنه ، فقد طلب ناشره الى اكبر العلماء في فرنسا ان يكتب كل منهم فصلاً عن منهج البحث في العلم الذي تخصص فيه وأفنى حياته في الكشف عن حقائقه حتى أصبح يتحدث في علمه وكأنه يروي ذكريات خاصة .

ويكفينا أن نشير من بين هؤلاء العلماء الى اسماء خالدة كأسماء « دركايم » في علم الاجتماع و « مونو » في علم التاريخ و « ريبو » في علم النفس و « سالمون ريناخ » في علم الآثار واخيراً « لانسون » في الادب و « مابيه » في علم اللغة . وهذان الأخيران هما العالمان اللذان كان لنا شرف ترجمة بحثيهما وتقديمهما الى القراء العرب في هذا الكتاب .

أما (لانسون) فأستاذ للأدب الفرنسي، تخرجت على يديه أجيال من الأدباء والباحثين الذين يكونون اليوم في فرنسا مدرسة عظيمة

الخطر لأنها تجمع بين الاتجاه الفلسفي في النقد والدقة العلميـــة فى البحث ، حتى ليأتي ما يكتبه أفراد هذه المدرسة مزيجاً قوياً من التفكير والمعرفة الصحيحة . ولد هذا الأستاذ الكبير في مدينـــة اورليان سنة ١٨٥٧ ومات سنة ١٩٣٤ وإنه وإن يكن معروفـاً قبـــل كل شيء بكتابـــه الضخم عـــن تاريخ الآداب الفرنسية منذ نشأتها إلى القرن العشرين ، إلا أنه لم يقدم على تأليف هذا الكتاب ولم يجمع دفتي الادب الفرنسي في مجلد ألا بعد أن تناول بالبحث المنفرد كثيراً من المؤلفين أمثال بوسويه وبوالو و كورناي وفولتير كما تناول طائفة من تيارات الأدب وفنونه. وكان آخر ما كتب ، مجلده القيم عن المثل الاعلى الفرنسي في الادب منذ عصر النهضة الى الثورة الفرنسية . كما أن كتابه عن فن النثر يعتبر فتحاً جديداً في تحليل عناصر الصياغة وموسيقى الايقاع في النثر الذي يظن عامة الناس انه يخلو من الوزن بعد ان انفرد به الشعر .

وأما انطوان ماييه وهو عالم لم تقتصر شهرته على فرنسا بل طبقت آفاق العالم . ولا نبالغ اذا وصفنا هذا الرجل بانه ظـــاهرة بشرية خارقة للمألوف ، فقـــد درس و كتب في فقه ما ينيف على أربعين لغة « هندو اوربية » من الارمنية الى الفارسية الى اللغـات الجرمانية واللغات الصقلبية بل والرومانية . وذلك فضلاً عما كتبـه في فلسفة اللغات العملية ، وبخاصة من الناحية الاجتماعية ، إذ كان يعتبر اللغة ظاهرة اجتماعية قبل كل شيء ، ولا تزال مؤلفاته مرجع الدارسين ، وسنجتزئ هنا بذكر بعضها من مثل « لغات العالم » الذي أشرف على تأليفه مع الاستاذ كوهين ، و « اللغات في اوربا

الحديثة ، و « اللهجات الهندو اوربية » ، ثم مؤلفه الراسخ كالطود المسمّى « مقدّمة لدراسة اللغات الهندو اوربية دراسة مقارنـة » ، وأخيراً مجموعة أبحاثه التي نشرها تلاميذه بعد وفاته في مجلدين بالغي الفائدة والايحاء باسم « علم اللسان العام وعلم اللسان التـاريخي » . أضف الى ذلك مؤلفاته الخاصة عن كل لغة من لغات العالم مثل «بحث في تاريخ اللغة الاغريقية ، وبحث في تاريخ اللغة اللاتينية » ، و «نحو اللغة الفارسية » الخ ...

وقد ولد هذا العالم الكبير في سنة ١٨٦٦ وتوفي عام ١٩٣٦ .

واذا كانت مناهج البحث العملية موضـع اهتمام الغربيين بوجـه عام، فاننا نحن الشرقيين أشد منهم حاجة اليها ، لعدّة أسباب : منها ما يرجع الى مزاجنا القومي ومنها ما يرجع الى نظم التعليم في بلادنا . فالشرقيون عاطفيون كثيراً ما تنشر مشاعر الجذب والنفور عـلى تفكيرهم ضباباً قد يعمي معالم الحق. وفي كثير ، إن لم يكن في كافة البلاد العربية ، لم تستقم بعد نظم التعليم بحيث تسفر عن عقل مكوّن يحتاط في التأكيد ويحرص على ملابسة الواقع ، كما ان التحصيل لا يزال طاغياً فيها على الفهم . وفي هاتين الحقيقتين القاسيتين ما يظهر حاجتنا الى دراسة المناهج لعلّنا نخرج منها بقيادة فكرية ضرورية .

ومناهج البحث ليست قيادة للفكر فحسب بل هي ايضاً، وقبل كل شيء ، قيادة اخلاقية لأن روح العلم روح اخلاقية . وكما يخشى على الفرد الذي يزاول الحياة العملية من الانحراف عن مبادىء الشرف كذلك يخشى من الخطر نفسه على من يزاولون أعمال الفكر بل ربما كان الخطر أعظم هنا ، لان وقائع الحياة قد ينبعث منها الجزاء .

أما الفكر فانه وإن يكن ضرر الانحراف فيه أقل ، وخطره أوسع انتشاراً، الا ان الجزاء فيه قدلا يكون سريعاً ولا فعالا ولا أكيداً، لانه لا يعدو ان يكون فقد المؤلف ثقة القراء، وتلك مسألة هروب.

والمنهجان اللذان ننشرهما اليوم ، فضلاً عن قيادتهما للفكر وتسديدهما للخلق العلمي ، يفتحان في مادتي اللغة والادب ابواباً للتفكير بل وأبواباً للبحث لم نطرقها بعد، لا في دراستنا لتراثنا العربي ولا في محاولتنا لخلق تراث جديد .

فنحن الى اليوم لا نزال في دراستنا للادب العربي لا ندخل فيه غير الشعر والنثر الفني أي الخطب والأمثال والمقامات والرسائل مع أن هذا ليس خير ما في التراث العربي، إذ اللفظية طاغية عليه ومادة الفكر والاحساس ناضبة فيه . وعلى العكس من ذلك كتابات المؤرخين والفلاسفة وعلماء الاخلاق والاجتماع والمتصوفين والمتكلمين الذين لا ندخلهم في تاريخ الادب في حين لا يخلو مؤلف في تاريخ الآداب الغربية من الوقوف عند أمثالهم وقتلهم بحثاً . وبهذا يخرج دارس الادب في اوربا بمحصول عقلي وعاطفي يسلحه للحياة عملية كانت أو نظرية .

ونحن في نقدنا للمؤلفات الأدبية بين أمرين : إما أن ننسخ طائفة من المعلومات المتناقضة غير المحققة التي جمعها الرواة والمتحدثون بين دفتي الكتب القديمة نعيد كتابتها او ننقلها كما هي ثم نقدمها للطلاب والدارسين فلا يجدون فيها غناء ولا لذة ، وإما أن نحاول التجديد فيسرف بعضنا في المدح او القدح ويسوق طائفة من التأكيدات التي لا تستقيم في فكر ولا تستند إلى معرفة ، وإما ان

نقحم على الادب العلوم والنظريات الاوربية الحديثة محاولين ان نلبسه اياها حتى ولو تمزّقت من حوله او ضاقت عنه ، فمنّا من يأتيه بنظريات علم النفس وعلم الاجتماع وعلم التطور حتى يحمله مـا يطيق وما لا يطيق .

ومنهج الاستاذ لانسون يقينا هذه الأخطار جميعاً . ولو لم يكن له من فضل الا أنه قد دلّل على أصالة المنهج الادبي وتميّزه من غـيره من المناهج ومدى الضوء الذي يستطيع ان يستمده من العـلوم الاخرى لكفاه فائدة . انظر اليه كيف يدعونا الى ان لا نأخذ من العلوم الرياضية خططها ومعادلاتها بل روحها التي هي كما يقال روح اخلاقية بحتة . انظرْ اليه كيف ينتقد بحق محاولة الاستاذ الجبار برونتير عندما طبّق نظرية التطوّر عـلى الادب كما طبقها من قبله سبنسر على الاخلاق والاجتماع بعد ان وضع داروين أسسها العامة في عـالم الطبيعيات . انظر اليه كيف يقول أن الادب ظلال ومفارقات قد لا تحتويها الالفاظ بغير الايماءة الخفيفة والايحاء البعيد. تأمل كل قضية من قضايا هذا العقل المشرق تجد فيضاً من الضيـاء الذي ينير لك حقائق الادب بل حقائق الحياة الانسانية والتفكير البشري .

واللغة التي هي مستودع تراث الامم لا نزال نحن بعيـدين عن استخراج ما في حناياها من حقائق انسانية عامة وحقائق خاصـة للشعب العربي والعقلية العربية كما رسبت بها خلال القرون المليئة بالاحداث حتى ليصح القول باننا لا نزال نعيش على ما خلفه علمـاء النحو والصرف والبلاغة الاقدمون . وعندما يدّعي بعضنا التجديد

لا يعدو ، في الحقيقة ، التطريز على ثوبٍ خَلَقٍ حتى أصبحنا أشبه بمن يرقص في السلاسل . وكم يذكرني سادتنا الباحثون في اللغة بفقير يصرف قرشاً الى مليمات ليقرقع بها !..

لقد تقدّمت الدراسات اللغوية في الغرب وازداد الاهتمام باللهجات الحديثة التي نسمّيها عامية ونظن انها لا تطّرد على قاعدة ولا تستند الى نحو . وأخذت الابحاث تنهض على التاريخ من جهة والمقارنة من جهة اخرى . أما نحن فلا نزال جامدين عند اللغة الفصيحة ولا تزال ابحاثنا تقوم على المنطق المجرّد او التأكيدات المسرفة ، ولا تزال مسألة الصحة والخطأ محور مجادلاتنا اللغوية .

والمنهج الذى يقدّمه لنا الاستاذ ماييه خليق بأن يبدّد من العقول كل هذه الاوهام وأن يفتح للدراسات مجالات لم تكن تخطر لنا ببال . وقد خطّط فيه بعد طول مراس طريقاً كاملاً لتناول اللغة منذ عناصرها الصوتية الاولى الى حقائقها المركبة جملا وفقرات .

هذه فكرة عابرة عن النفع الذي نرجوه من نشر هذين المنهجين في العالم العربي وقد أوضحنا قدر كاتبيهما وقيمة ما كتبا ووجه الاستفادة منها لدى القراء العرب . فلم يبق الا ان يحقق الله ذلك النفع الذي نرجوه .

القاهرة — محمد مندور

منهج البحث في تاريخ الآداب

بقلم

لانسون

ليس[1] المنهج الذي احاول ان اعطي فكرة عنه من ابتكاري . وما هو الا نتيجة لتفكيري في الخطة التي جرى عليها عـــدد من سابقيّ ومعاصريّ بل واللاحقين من الناشئين .

وهو بعد ليس خاصاً بالادب الفرنسي الحديث فقد أخذ بهـذا المنهج – في روحه ومبادئه العامة – الفريد وموريس كروازيه Alfred et Maurice Croiset عندما وضعا تاريخ الآداب الاغريقية كما اخذ به جاستون بواسييه Gaston Boissier في دراسته للادب اللاتيني ، وجاستون باري Gaston Paris وجوزيف بديـيـه J. Bédier عندما اوضحا من معالم الادب الفرنسي خلال القرون الوسطى [2] . وبفضله وضعَ في فرنسا الكثير من الكتب الجيدة عن

---

(١) كتب هذا المقال سنة ١٩٠٩ وروجع في مايو ويونيه سنة ١٩١٠ . اما الهوامش فأحدث من ذلك بكثير .

(٢) وباستطاعتي ان اضيف فردنـان برونتيير Brunetière لولا ان اتجاهه المنطقي الخطابي واعتقاده بمبدأ النشوء والارتقاء ومـذهبه التقريري في النقد الادبي والسياسي والاجتماعي والديني قد قادت اكثر من مرة هـذه النفس القوية بعيدا عن المنهج التاريخي النقدي فحاد عن الاستقراء المشروع . ومع ذلك ففي الكثير من مقالاته امثلة تُحتذى نستطيع ان نتعلم منها كيف نبني الفكرة على اساس البحث العلمي الدقيق . وفي الحق ان هـذا الرجل كان استاذا كبيرا خطرا على البعض نافعا للكثيرين . لقـد علم المواهب الصبر على العمل ولم يحتقر قط المعرفة الدقيقة . (المؤلف)

آداب اوروبا كلها بل وآداب العالم .

واذا كانت ملاحظاتي تنصب بنوع خاص على الادب الفرنسي منذ عهد النهضة ، فذلك لان معرفتي به أتم وتفكيري فيه مستمر ، ثم لانه بينما لا ينكر احد فائدة المناهج الدقيقة في كل المجالات الاخرى ، نرى الادب الفرنسي الحديث مسرحاً لكل الاهواء وميداناً لمعارك الشهوات، بل نستطيع أن نهمس بانه ملجأ للكسالى. فكل انسان يعتقد في نفسه الكفاية للحديث عنه ، ما توهم انه من ذوي الذكاء وما أحس بقدرته على الاعجاب والكراهية . ولكم من أديب يرى في « المنهج » شبحاً مخيفاً ، وعنده أن لا بد له من الدفاع عن لذته الخاصة وميله الشخصي ضد سطوته المميتة . وفي الحق أن تلك المخاوف وهم باطل .

نحن لا ننال من لذة القارىء الذي لا يطلب من الادب غير تسلية رفيعة تتغذى بها نفسه وترهف ، اذ من الواجب أن نكون نحن في بادىء الامر ذلك القارىء ، وأن نعود فنكونه في كل حين. لأن البحث المنظم يكمل هذا النشاط ولكنه لا يحل محله .

هذا ونحن لا نريد ان نمحو اي نوع من انواع النقد الادبي .

فالنقد التأثري : critique impressioniste نقد مشروع لا غبار عليه ، ما ظل في حدود مدلوله ، ولكن موضع الخطر هو أنه لا يقف قط عند تلك الحدود . فالرجل الذي يصف ما يشعر به عندما يقرأ كتابا مكتفياً بتقرير الاثر الذي تخلفه تلك القراءة في نفسه ، يقدم بلا ريب للتاريخ الادبي وثيقة قيمة نحن في حاجة ماسة الى امثالها مهما كثرت . ولكن مثل هذا الناقد قلما يمسك عن ان يزج

باحكام تاريخية خلال وصفه لأثر الكتاب في نفسه أو أن يتخذ من ذلك الأثر وصفاً لحقيقة الكتاب الذي يقرأه .

وكما يندر ان يجيء النقد التأثري خالصاً ، كذلك يندر أن يتحي كلية ، فهو يتنكر في ثياب التاريخ والقضايا المنطقية ، وهو يوحي بمذاهب عامة تتخطى المعرفة الدقيقة بل وتتلفها .

ولذا كان من اهم وظائف المنهج ان يطارد هذا النقد التأثري الذي يضل جاهلا بما يفعل وأن يطهر منه ابحاثنا . وأما النقدالتأثري الصريح كمقياس للاثر الذي يخلفه كتاب ما في نفس ما فنحن نقبله ونستفيد منه .

وكذلك نحن لا نضمرللنقد التقريري: Critique dogmatique سوءاً وهو عندنا وثيقة . وذلك لان المعتقدات الفنية والاخلاقية والسياسية والاجتماعية والدينية ليست الا مظهراً لاحساس شخصي او وعي اجتماعي ، وكل حكم تقريري على كتاب ادبي يبصرنا بنوع الاثر الذي خلفه ذلك الكتاب في شخص ما أو في جماعة ما ونحن، مع الحذر الواجب ، نتخذ من هذا الاثر مصدراً من مصادر تأريخ ذلك الكتاب . وكل ما تطلبه هو ألا ينتحل هذا النقد لنفسه صفة التاريخ ، وألا يقبله الجمهور كتاريخ بينما هو في الغالب نقد اهواء وتحيز يتخذ من المذهب الذي يؤمن به مقياساً يفسد حقائق الافكار بل وحقائق الوقائع . نريد من كل ناقد قبل ان يحكم على بوسويه Bossuet او فولتير Voltaire باسم مذهبٍ ما او دين ما أن يأخذ نفسه بمعرفتها غير ناظر الا الى اكبر ما يستطيع ان يجمع عنهما من معلومات وان يحقق من علاقات . ومثلنا الاعلى هو ان نصل الى ان

نعرض من بوسويه أو فولتير شخصية لا ينكرها كاثوليكي ولا خصم لرجال الكنيسة وأن نصورهما في صورة يسلّم الجميع بأنها حقيقية . ولكل بعد ذلك أن يخلع عليهما من الصفات ما يريد تبعاً لهواه .

التاريخ العام وتاريخ الادب

تاريخ الأدب جزء من تاريخ الحضارة فالادب الفرنسي مظهر لحياتنا القومية نجد في سجله الطويل الفني كل تيارات الأفكار والمشاعر التي امتدت الى الاحداث السياسية والاجتماعية او تركزت في النظم ، بل ونجد كل هذه الحياة النفسية الدفينة التي لم تستطع – بما فيها من آلام وأحلام – أن تتحقق عملاً .

وهمنا الأسمى هو ان نهدي أولئك الذين يقرأون الى العثور في صفحة لمونتين . Montaigne اوفي مسرحية لكورني . Corneille او سونتا : . « Sonnet » لفولتير على مرحلة من الثقافة الانسانية الاوربية او الفرنسية .

والتاريخ الادبي يحاول أن يصل الى الوقائع العامة وأن يميز الوقائع الدالة ثم يوضح العلاقة بين الوقائع العامة والوقائع الدالة .

. واذن فمنهجنا هو في صميمه المنهج التاريخي . وخير اعداد لطالب الآداب هو ان يطيل التفكير في الـ « مقدمة للدراسات التاريخية » التي وضعها «لانجلوا » و« سينيوبوس» : , Langlois et Seignobos او في الفصل الذي كتبه جبرييل مونو : G . Monod في المجلد الآخر من المجموعة التي أكتب لها الآن .

ومع هذا فثمة فروق هامة بين المادة العادية للتاريخ بمعناه الدقيق ومادتنا ، وعن تلك الفروق تنشأ فروق في المنهج .

موضوع التاريخ هو الماضي ، ماض لم تبق منه الا أمارات او انقاض بواسطتها يعاد بعثه . وموضوعنا نحن أيضاً هو الماضي ولكنه ماض باق ، فالادب من الماضي ومن الحاضر معاً . النظام الاقطاعي وسياسة ريشيليه : Richelieu وضريبة المرور : gabelle وموقعة «أوسترلتز» . كل اولئك ماض نعيد بناءه وأما « السيد» :Le Cid و « كانديد » Candide فلا يزالان موجودين كما كانا في سنتي ١٦٣٦ و ١٧٥٩ وهما موجودان لا كوثائق محفوظات او اوامر ملكية أو حسابات مبانٍ في حالة تحجر ميتة باردة لا تمت الى الحياة في ايامنا بسبب بل كلوحات « رامبرانت » : Rembrandt و « روبانس »: Rubens حية دائماً متمتعة بخصائص ايجابية تحمل للانسانية المتحضرة ممكناتٍ لا تنفد في اثارة الاحساس بالجمال الفني او الخلقي .

نحن في موقف مؤرخي الفن . مادتنا هي المؤلفات التي أمامنا والتي تؤثر فينا كما كانت تؤثر في أول جمهور عرفها . وفي هذا ميزة لنا وخطر علينا . وهي بعد حالة خاصة يجب ان تلاقيها وسائل خاصة في منهجنا .

نحن بلا ريب نتناول كالمؤرخين كمية كبيرة من الوثائق مخطوطةً ومطبوعةً ليست لها قيمة الا كوثائق ولكنها كوثائق نستخدمها للاحاطة بالمؤلفات الادبية موضوع دراستنا المباشر ولالقاء الضوء عليها .

انه لأمر دقيق أن نعرّف « العمل الادبي » ، ومع ذلك فمن الواجب ان نحاول ذلك التعريف . ومن الممكن أن نقف عند

تعريفين لا يكفي أيها منفرداً ، ولكنّ كل واحد منها يكمل الآخر بحيث ينشأ عن اجتماعهما تعريف يشمل كل مادة دراستنا .

يمكن تعريف الادب بالنسبة الى الجمهور ، فالكتاب الادبي هو ذلك الذي لا يُقصد منه الى قارئ متخصص ولا الى تعليم أو منفعة خاصة ، أو هو ذلك الذي يعدو ما قُصد منه اولاً أن كان قد قصد منه شيء مما ذكرت ويخلد بعده فيقرأه جماهير من الناس لا تلتمس فيه غير التسلية أو الثقافة العقلية .

ثم ان الكتاب الادبي يعرّف على الخصوص بطبيعته الذاتية . هناك قصائد مقصورة بحكم فنها على جمهور محدود جداً ولن يتذوقها قط عدد كبير من الناس . فهل نخرجها من الادب ؟ وأمارة العمل الأدبي هي القصد منه أو التأثير الفني ، هو جمال الصياغة وسحرها والمؤلفات الخاصة تصبح أدبيـة بفضل صياغتها التي توسع من قوة فعلها وتمد منها . والأدب يتكون من كل المؤلفات التي لا يدرك معناها وتأثيرها كاملين إلا بالتحليل الفني لصياغتها .

ومن ثم ينتج اننا نذهب من بين الكميات الكبيرة من النصوص المطبوعة بكل ما يثير لدى القارئ ، بفضل خصائص صياغته ، صوراً خيالية أو انفعالات شعورية أو احساسات فنية . وبهذا تتميز دراستنا عن الدراسات التاريخية الاخرى ويتضح ان التاريخ الادبي ليس علماً صغيراً من العلوم المساعدة للتاريخ .

نحن ندرس تاريخ النفس الانسانية والحضارة القوميـة في مظاهرها الادبية وفي تلك المظاهر قبل كل شيء ونحن انما نحاول دائماً أن نصل الى حركة الأفكار والحياة خلال الاسلوب .

واذن فعيون المؤلفات (روائعها) هي محور دراستنا أو بعبارة أخرى ان كلاً منها مركز من مراكز دراستنا . ولكن لا ينبغي أن نعطي كلمة « عيون المؤلفات » معناها الحاضر أو الشخصي اذ لا يجوز أن نقصر دراستنا على ما نعتبره اليوم نحن ومعاصرونا « عيوناً » بل كل ما كان يعتبر كذلك في يوم ما ، اي كل تلك المؤلفات التي رأى فيها جمهور فرنسي مَثَله الاعلى في الجمال والخير او في الحيوية . ولِمَ فقدت بعض تلك المؤلفات خصائصها الفعالة ؟ أهي نجوم خبت ؟ أم أن أعيننا هي التي لم تعد تستجيب لبعض أنواع الاشعاع ؟ ان من عملنا ان نفهم تلك المؤلفات الميتة ذاتها ومن أجل ذلك يجب أن نتناولها على نحو يغاير تناولنا لوثائق المحفوظات، يجب أن نجعل أنفسنا قادرين على الاحساس بمزايا صياغتها وذلك بما نبذل من جهد في فهمها فهماً يقربها الى نفوسنا .

بعض صعوبات المنهج

هذه الخصائص الحسية والفنية التي تميز المؤلفات الادبية هي « وقائعنا الخاصة » ونحن لا نستطيع دراستها دون ان نحرك قلبنا وخيالنا وذوقنا . وانه ليستحيل علينا ان ننحي طريقة استجابتنا الشخصية، كما انه من الخطر ان نحتفظ بها . وهذه اولى صعوبات المنهج.

المؤرخ عندما يتناول وثيقة يحاول ان يقدُر العناصر الشخصية فيها لينحيّها ، ولكن هذه العناصر الشخصية هي التي تحمل القوة العاطفية والفنية في المؤلف الادبي واذن فمن الواجب ان نحتفظ بها.

لكي يستخدم المؤرخ شهادة لـ « سانسيمون»: Saint-Simon يأخذ نفسه بتصحيح تلك الشهادة اي بحذف سان سيمون منها ،وأما نحن فنحذف منها كل ما ليس بسان سيمون . وبينما يبحث المؤرخ عن الوقائع العامة ولا يُعنى بالافراد إلا في الحــــدود التي يمثل فيها هؤلاء الافراد جماعاتٍ أو يغيرون اتجاهات نقف نحن عند الافراد اولا ، لان الاحساس والانفعال والذوق والجمــــال أشياء فردية . و « راسين » : Racine لا يهمنا فقط لانه يتمثل« كينو»: Quinault ويحتوي على « برادون » : « Pradon وبولد « كامبسترون » : «Campistron » بل لانه قبل كل شيء « راسين » . مزيج فريد من المشاعر التي أفصحت عن جمال .

يقولون إن الحس التاريخي هو حس الفروق ، وعلى هذا النحو نكون نحن أمعن في التاريخ من كل المؤرخين فالفروق التي يلتمسها المؤرخ بين الوقائع العامــــة نمعن نحن فنلتمسها بين الافراد . نحن نسعى الى تحديد أصالة الافراد أي الظواهر الفردية التي لا شبيه لها ولا تحديد . وهذه هي الصعوبة الثانية في المنهج .

ولكن مهما يكن الافراد من العظمة والجمال فان دراستنا لا يمكن ان تقتصر عليهم ، وذلك أولا لاننا لن نعرفهم اذا لم نرد ان نعرف غيرهم . فأكثر الكتاب اصالةً هو الى حد بعيد راسب من الاجيال السابقة وبؤرة للتيارات المعاصرة وثلاثة ارباعه مكون من غير ذاته ، فلكي نميزه ــ أي نجده هو في نفسه ــ لا بد من ان نفصل عنه كمية كبيرة من العناصر الغريبة . يجب ان نعرف ذلك الماضي الممتد فيه وذلك الحاضر الذي تسرب اليه ، فعندئذ نستطيع

ان نستخلص اصالته الحقيقية وان نقدرها ونحددها ومع ذلك فلن نعرفه عند تلك المرحلة إلا معرفة احتمالية ، اذ لا بد لكي ندرك كيفه وعمقه الحقيقين من أن نراه يعمل وينمي نشاطه ، اي لا بد من ان نتتبع تأثير الكاتب في الحياة الادبية والاجتماعية . ومن ثم تأتي دراسة الواقع العامة وفنون الادب وتيارات الافكار وحالات الذوق والاحساس التي تملي نفسها علينا وقد احاطت بكبار الكتاب وعيون المؤلفات .

ثم إن الخصائص التي تميز العبقرية الفردية ليست أجمل ما في تلك العبقرية وأعظمه لذاتها ، بل لأنها تشمل في حناياها الحياة الجماعية لعصر أو هيئة وترمز لها اي تمثلها . ومن ثم وجب علينا أن نحاول معرفة كل تلك الانسانية التي افصحت عن نفسها خلال كبار الكتاب ، كل تلك التضاريس الفكرية او العاطفية الانسانية او القومية التي يرشدوننا الى اتجاهاتها وقممها .

وهكذا نضطر الى أن نسير في اتجاهين متضادين . نستخلص الاصالة ونوضحها في مظهرها الفريد المستقل الموحد ثم نُدخل المؤلف الادبي في سلسلة ونظهر كيف ان الرجل العبقري نتاج لبيئة وممثل لجماعة . وهذه هي الصعوبة الثالثة في المنهج .

إنّ روح النقد علمية مستنيرة فهي لا تطمئن في بحثها عن الحقيقة الى سداد ملكاتنا الطبيعية ، بل تنظم خطاها تبعاً للاخطاء التي عليها أن تتجنبها . وفي الملاحظات السابقة ما يساعدنا على تكوين مناهج التاريخ الادبي اذ توضح النقط الاساسية التي نتعرض فيها للخطأ وفقاً لطبيعة موضوعنا وملابسات دراستنا .

وخاصية المؤلف الادبي هي أن يثير لدى القارىء استجابات في ذوقه واحساسه وخياله ولكنه كلما كانت تلك الاستجابات أعمق واوفر كنا أقل استعداداً لان نفصل أنفسنا عن ذلك المؤلف. فالاثر الادبي الذي تحدثه فينا « افيجينيا » : Iphigénie . ماذا يرجع منه الى « راسين » ؟ وماذا يرجع الينا ؟ وكيف نستخلص من الأثر الشخصي الذي نتلقاه معرفة تصح عند الغير ؟ أليس في تعريف الأدب نفسه ما يحصرنا في التأثرية ؟

واذا كان علينا أن نحاول وصف العبقريات الأصلية فكيف نستطيع أن نثق من الوصول بها الى « ما لن يُرى مرتين » ؟ وهل يمكن قط أن ندرك « الفردي » ؟ هل نستطيع ان نصل الى المعرفة بغير المقارنة ؟ وأن نعرف إلا ما نجد له شبيهاً في انفسنا او خارجاً عنا ؟ وأما ما دون ذلك فمن الممكن أن نلمحه وأن نشير الى وجوده ولكنه لن يكون بالنسبة الينا الا « شيئاً ما » ، نقول اننا نعرفه عندما نصف بعض آثاره التي نحس بها في أنفسنا او يحس بها الغير . ولكن من يضمن لنا صحة تلك المعرفة وتمامها ؟ من يضمن لنا أننا لا نصف « تين » « Taine » وانفسنا بدلاً من « راسين » عندما نتحدث عن تأثير « راسين » في « تين » وفينا ؟

وأخيراً لكي نرد الخاص الى العام ونحدد نسب العنصر الفردي الى العنصر الجماعي في مؤلف أدبي ونرجع العبقرية الى مصادرها دون أن نحط منها ونرى فيها مركباً لا نقف به عند الجمع ونجعلها تعبر عن الجمهور المتضع دون ان نردها اليه — كم في كل هذا من صعوبات ! وكم فيه من شكوك ! ثم كم من دراسات دقيقة لا بد

من القيام بها ! وفي تضاعيفها يمكن ان تنساب أهواؤنا الخاصة .

وعلى أي حال فموضع الخطر بالنسبة الينا هو أن نتخيل بدلاً من ان نلاحظ ، وان نعتقد أننا نعلم عندما نحس . والمؤرخون ليسوا في أمان من هذا الخطر ولكن وثائقهم لا تعرضهم له بنفس النسبة ، وذلك لأن الأثر الطبيعي العادي للمؤلفات الأدبية هو أن تحدث في القارىء تغييرات ، واذن فمن الواجب أن يُعدّ منهجنا بحيث يصحح من المعرفة وينقيها من العناصر الشخصية .

ضرورة التذوق الشخصي

ولكنه لا يجوز أن نبلغ بتلك التنقية الى أبعد مما يجب .

واذا كان النص الادبي يختلف عن الوثيقة التاريخية بما يثير لدينا من استجابات فنية وعاطفية فانه يكون من الغرابة والتناقض ان ندل على هذا الفارق في تعريف الادب ثم لا نحسب له حساباً في المنهج . لن نعرف قط نبيذاً بتحليله تحليلاً كيماوياً او بتقرير الخبراء دون ان نذوقه بانفسنا . وكذلك الأمر في الأدب فلا يمكن أن يحل شيء محل « التذوق » . واذا كان من النافع لمؤرخ الفن أن يقف أمام لوحات زيتية مثل « يوم الحساب » : . ugement dernier أو « حلقة الليل » : Ronde de nuit واذا لم يكن ثمة وصف في قائمة متحف أو تحليل فني يستطيع أن يحل محل إحساس العين فكذلك نحن لا نستطيع ان نتطلع الى تعريف أو تقدير لصفات مؤلف أدبي أو قوته ما لم نعرّض أنفسنا اولاً لتأثيره تعريضاً مباشراً ،

تعريضاً ساذجاً .

واذن فمحو العنصر الشخصي محواً تاماً أمر غير مرغوب فيه ولا هو ممكن و « التأثرية » أساس عملنا . واذا كنا نرفض أن نعتدّ باستجاباتنا الخاصة فاننا لا نفعل ذلك إلا لكي نسجل استجابات الغير، وهـــذه الاخيرة وان تكن موضوعية بالنسبة الينا فهي شخصية بالنسبة للمؤلف الذي نريد معرفته .

لنحذر جيداً من أن نتصور ، كما نفعل عادة ، أننا نعمل عمـلا علمياً موضوعياً عندما نأخذ في بساطة بتأثرات زميل كبير بدلا من تأثراتنـا نحن . فتأثري موجود مهما كانت قيمتي في نظري ، تأثري حقيقة واقعة يجب أن أحسب لها حسابا كما أحسب لتأثير أي قارىء آخر ولو كان ذلك القـارىء « برونتير » « Brunetiére » او « تين » « Taine » بل انني لن استطيع فهم الالفـــاظ التي يستخدمونها في التعبير عن تأثرهم ما لم اكن قد ادركت تأثري الخاص، فاحساسي أنا هـو الذي يعطي لغتهم معنى بالنسبة اليّ .

انا موجود ككل قارىء آخر . ووجودي كوجوده لا اكبر . فتأثري يدخل في مجال التاريخ الأدبي ولكنه لا يجوز أن يتمتع بامتياز خاص هو حقيقة واقعة . ولكنه ليس إلا حقيقة ذات قيمة نسبية ننظر اليها نظرة تاريخيــة . فهو يعبر عن العلاقة بين المؤلف وبين رجل ذي احساس خاص وثقافة خاصة في عصر خاص ، ومن ثم يمكن ان يعين على تحديد هذا المؤلف بآثاره في النفوس .

بل من الممكن استخدام كل الشهوات الدينية والسياسية وكل ميل ونفور مرده الى الطبع . فالبغض والحماسة بل والتعصب التي

يثيرها في نفسي كتاب قيم يمكن أن تتخذ أمارات تهديني في تحليله، وذلك بشرط أن لا أجعل منها مقياساً للحكم على قيمته وجماله. ونوع الانفجار يدل أحياناً على المادة التي تفرقعت.

والشيء الاساسي هو أن لا أتخذ من نفسي محوراً وأن لا أجعل لمشاعري الخاصة، ذوقي أو معتقداتي، قيمة مطلقة. اراجع تأثراتي وأحدّ منها بدراسة أغراض المؤلف وتحليل كتابه تحليلاً داخلياً موضوعياً وبالنظر في التأثرات التي احدثها الكتاب عند اكبر عدد من القراء أستطيع أن اصل اليه في الحاضر او الماضي، فتلك تأثرات لها من الدلالة والاعتبار ما لتأثراتي وبفضلها اضع الكتاب في مكانه. إنّ اهتزازات نفسي ستنصهر مع خير الاهتزازات التي ولّدها كتابا « الافكار » Pensées لباسكال أو « اميل » Emile لجان جاك روسو عند الانسانية المتحضرة منذ نشرهما، ومن انسجامها الكلي المليء بالنشاز سيتكون ما نسميه « تأثير الكتاب »

ثم اننا سنحرص على ان لا نطلب الى حساسيتنا ان تجيب إلا عما تستطيع. ولكن العمل امر دقيق وان كان المبدأ واضحاً. يجب ان نحاول الوصول الى معرفة كل ما تمكن معرفته بمناهج البحث الموضوعية النقدية. يجب ان نجمع كل ما نستطيع من معلومات دقيقة شيئية يمكن التأكد من صحتها ولا نطلب الى الحدس intuition أو الى العاطفة الا ما لا يمكن الوصول اليه بأية طريقة أخرى. ومع ذلك أليس في هذا اسراف؟ ان من الافضل ان نجهل من ان نعتقد أننا نعلم ونحن في الواقع نجهل. واذن فلا ينبغي ان نطلب الى الحدس والعاطفة الا ما يقع بطبيعته في متناولها ويكون

ادراكه بأي طريقة أخرى أقل كمالا . ومعنى هذا هو ان نختبر في أنفسنا الخصائص الفعالة للمؤلف الادبي وقوة اثارته وجمال صياغته ونقارن نتيجة هذه التجربة بالنتائج التي تتمخض عنها تجارب الغير.

واذا كانت اولى قواعد المنهج العلمي هي اخضاع نفوسنا لموضوع دراستنا لكي ننظم وسائل المعرفة وفقاً لطبيعة الشيء الذي نريد معرفته فاننا نكون اكثر تمشياً مع الروح العلمية باقرارنا بوجود التأثرية في دراساتنا وتنظيم الدور الذي تلعبه فيها . وذلك لانه لما كان انكار الحقيقة الواقعة لا يمحوها فان هذا العنصر الشخصي الذي نحاول تنحيته سيتسلل في خبث الى اعمالنا ويعمل غير خاضع لقاعدة . وما دامت التأثرية هي المنهج الوحيد الذي يمكننا من الاحساس بقوة المؤلفات وجمالها فلنستخدمه في ذلك صراحة ولكن لنقصره على ذلك في عزم ولنعرف مع احتفاظنا به كيف نميزه ونقدره ونراجعه ونحده ، وهذه هي الشروط الاربعة لاستخدامه. ومرجع الكل هو عدم الخلط بين المعرفة والاحساس ، واصطناع الحذر حتى يصبح الاحساس وسيلة مشروعة للمعرفة .

يجب ان يكون لنا ذوقان

النظرة التاريخية تضع العنصر الشخصي في موضعه وتجرد الناقد من اهوائه . فاستجابتي التي هي كل شيء بالنسبة الي ما دمت محتفظاً بها لنفسي لا تلبث عندما تصدر عني وتستقر في مجال التاريخ ان تصبح واقعة من الوقائع ، واقعة لا امتياز لها . وهي اذا كانت تنير

تلك الوقائع الاخرى فهذه بالتالي تحد منها .

ولكن المجال التاريخي ليس في الغالب الا خدعة ، فهو يغطي كل الاعيب التأثرية ومحاولات النزعة التقريرية. هو حيلة أو تمويه .

ولما كان التاريخ يمكننا من أن لا نرجع كل شيء الى أنفسنا وأن ندرس كل قرن وكل كاتب في ذاته فأنه بذلك يفتح أمام حساسيتنا الفنية اتجاهاً جديداً وممكنات للنشاط لا حد لها ولا خطر فيها . فنحن عندما نقرأ لا تكون استجاباتنا الفنية في العادة تامة النقاء ، إذ أن ما نسميه ذوقاً ليس الا مزيجاً من المشاعر والعادات والأهواء التي تساهم فيها كل عناصر شخصيتنا المعنوية بشيء ، ومن ثم يدخل في تأثراتنا الادبية شيء من أخلاقنا ومعتقداتنا وشهواتنا .

ولكن التاريخ يستطيع أن يفصل عنا حساسيتنا الفنية او على الاقل يخضعها لحكم الصور التي نكونها عن الماضي . ومن ثم يكون نشاطنا الفني عبارة عن ادراك العلاقات التي تربط العمل الادبي بمثل أعلى خاص أو بمنحى في الصياغة معلوم ثم ربط هذين الاخيرين بروح الكاتب او حياة الجماعة ، أي أننا نأخذ انفسنا بأن نحس تاريخياً فنقيم سلم القيم لا تبعاً لميولنا الخاصة بل وفقاً لقوة ودقة ما أمكن تحقيقه في المؤلفات التي ندرسها بالنسبة الى المذهب الذي صدرت عنه ، فنحاول أن نحس عند « بوسويه » ما كان يستطيع أن يحسه الرجال الذين بنوا أعمدة « اللوفر » وعند « فولتير » الرجال الذين كان يعمل لهم باتر Pater أو مرتان Martin . ثم أننا لن نتخلى عن أنفسنا بل سنسجل استجاباتنا الخاصة عندما نقرأ ونصغي اليها كرمزيين إو انسانيين، كمفكرين احرار، أو كاثوليك ، يعيشون في سنة

١٩١٠ . ولكنه من الواجب أن نعرف كيف نقطع في أوقات أخرى العلاقة بين حساسيتنا الفنية وبقية شخصيتنا الحاضرة . يجب ان يكون لنا في الأدب وفي الفن ذوقان : ذوق شخصي يتخير المتع والكتب واللوحات التي نحيط بها انفسنا وذوق تاريخي نستخدمه في دراساتنا ، وهو ما يمكن أن نعرّفه بأنه « فن تمييز الاساليب » وتذوق كل مؤلف في اسلوبه بنسبة ما في ذلك الاسلوب من كمال .

حذار المعادلات العلمية والتراكيب الكيميائية

لقد كان تقدم علوم الطبيعة خلال القرن التاسع عشر سبباً في محاولة استخدام مناهجها في التاريخ الادبي غير مرة ، وذلك أملاً في اكسابه ثبات المعرفة العلمية وتجنيبه ما في تأثرات الذوق من تحكم وما في الاحكام الاعتقادية من مسلّمات غير مؤيدة . ولكن التجربة قد حكمت باخفاق تلك المحاولات .

وأقوى العقول هي التي انزلقت الى الشمل باكتشافات العلم الكبيرة . أقول هذا وانا افكر في تين وبرونتيير [1] اللذين لن آخذ مرة اخرى في نقد مذهبهما. فلقد اصبح من الواضح اليوم أن قصدهما الى محاكاة عمليات العلوم الطبيعية والعضوية واستخدام معادلاتها قد انتهى بهما الى مسخ التاريخ الادبي وتشويهه [2] . لا يمكن ان

(١) اذكر هذين الناقدين لأن أحداً لم يملك ما ملكا من موهبة . واخطاء الضعاف لا تبصّر بشيء . (المؤلف)

(٢) وليسمح لي بالاحالة الى المحاضرة التي القيتها ببروكسل في ٢١ نوفمبر ١٩٠٩ وطبعت في « مجلة جامعة بروكسل » ديسمبر - يناير ١٩١٠ . (المؤلف)

يبنى أي علم على انموذج غيره وانما تتقدم العلوم المختلفـــة بفضل استقلال كل واحد منها عن الآخر استقلالا يمكنـه من الخضوع لموضوعه . ولكي يكون في التاريـخ الادبي شيء من العلم يجب عليه ان يبدأ فيحظر على نفسه محاكاة العلوم الاخرى مهما كان نوعها .

واستخدام المعادلات العلمية في اعمالنا بعيد عن أن يزيد من قيمتها العلمية . هو على العكس ينقص منهـا اذ أن تلك المعادلات ليست في الحقيقة الا سرابا باطلا عنـــدما تعبر في دقة حاسمة عن معارف غير دقيقة بطبيعتها . ومن ثم تفسدها .

لنحذر الارقام . الرقم لا يمحو الفضفاض والغائم فى تأثرنا بل يستره . وكل من له اقل دراية بفن الكتابة يستطيع ان يجد في اللغة العادية الوسائل التي يوضح بها المفارقات الدقيقة التي بدونها لا نصل في دراستنا الى صواب . وتلك المفارقات لا تخضع للارقام .

لنفطن الى خداع الخطوط البيانية التي نستخدمها للرمز الى نمو الآراء الأدبية فهي تفترض (١) الوحدة (٢) الاستمرار وتدخلهما في دراسة تلك الآرء . ولكن ثمة حركات تنفجر كالأوبئة في عدة اماكن في وقت واحد وانواع من الأدب تولد مرتين او ثلاثا قبل أن تعيش . ولذا كثيراً ما تصور تلك الخطوط البيانية الحقائق تصويراً غير صحيح . لنصمد لغرورنا التافه في استخدام معادلات التكوين. فنحن لا نعرف قط كل العناصر التي تدخل في تكوين العبقرية ولا نسبة كل عنصر في المركب كما لا نستطيع ان نتنبأ بالناتج الذي سيصدر عن ذلك التركيب . فأولئـــك الذين يكوّنون لافونتين La Fontaine من « شمبانيا » والروح الغاليّة وملكـة الشعر ، أو

افيجينيا من آداب البلاط والتربية الكلاسيكية والحساسية ، ليسوا إلا دجالين أو سذجاً . والمقاربات التي نصل اليها في تحديداتنا لا تكاد تدنو من العبقرية . نحن نعرف بناء التراجيديا الكلاسيكية ويبدنا معادلاتها وبذلك نستطيع ان نكوّن « كورني » ولكن أيّ كورني « بير » أم « توما » ؟ هـا هي مكنونات تراجيديا البلاط ولكن من سنكونه راسين أم كينو : . Quinault . ان تنبؤاتنا لا تخلق الفرد على سبيل الجبر . كل الكلمات التي نستخدمها للدلالة على المكوّنات ، من ملكة شعرية الى حساسية الى ... تحمل مجهولا مخيفا . ومن ثم وجب ان نقنع بأن نحلل الذي أمامنـــا في تواضع وان نقص الوقائع ولنمسك عن ان ندعي العلم فنحاول تأليف رواية « فدر » : Phédre و « روح القوانـين » . L'Esprit des Lois. بتركيب كيماوي .

الأصطلاح العلمي عندما ننقله عندنا لا يلقي غير ضوء كاذب . بل قد يحدث أن يلقي ظلمة . « لقد تطورت الخطابة الدينية في القرن التاسع عشر الى شعر غنائي » هذه العبارة لا معنى لهـا الا عند من يعرفون الوقائع . واما عند اولئك الذين يجهلونها فان معناها خطأ ، وذلك لانه ليس في الوقائع ذاتها ما يدل عـلى تطور نوع ادبي الى نوع آخر . وانما هو المذهب الذي يرى ذلك بحيث يكون من الخير ان نسقط هذا الاصطلاح العلمي ونقول في لغـة جميع الناس « ان الشعر الغنائي في القرن التاسع عشر قد اتخـذ مادة له تلك المشاعر التي لم يكن يعبر عنها في فرنسا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الا بواسطة الخطابة الدينية » وهذه عبارة لا شك أقل اشراقاً

من السابقة ولكنها اوضح واصدق .

نحن بحاجة الى روح العلم

وأمعن في الروح العلمية موقف اولئك الادباء الذين لا يدعون بناء اي شيء على انموذج غيره بل يقصرون همهم على رؤية الوثائق الداخلة في مجال بحثهم والعثور على العبارات التي لا تخلف شيئا خارجا عنها ولا تضيف اليها إلا أقل ما يمكن. ولذلك كان اساتذتنا الحقيقيون هم سان بيف وجاستون باري .

الشيء الذي يجب ان نأخذه عن العلم ليس كما قال فردريك رو: Frédéric Rauh « هذه الوسيلة او تلك...بل روحه ... ذلك لأنه يلوح لنا ان ليس هناك علم عام أو منهج عام وإنما هناك منحى علمي عام ... لقد خلط الناس لزمن طويل بين الروح العلمية في ذاتها وبين منهج هذا العلم أو ذاك بسبب النتائج الدقيقة التي انتهى اليها. وبذلك أصبحت علوم العالم الخارجي الانموذج الوحيد للعلم . ولكن وحدة العلوم الطبيعية والعلوم الاخلاقيــة ليست إلا فرضاً اولياً postulat ومع ذلك فهناك منحى نفسي نواجه به الطبيعة وهو منحى مشترك بين العلماء .

« منحى نفسي نواجه به الطبيعة » هذا هو ما نستطيع ان نأخذه عن العلماء ، فننقل الينا النزوع الى استطلاع المعرفة والأمانة العقلية القاسية والصبر الدؤوب والخضوع للواقع والاستعصاء على التصديق ، تصديقنا لأنفسنا وتصديقنا للغير ، ثم

الحاجة المستمرة الى النقد والمراجعة والتحقيق . وانا لا أدري أهو علمٌ ما سنعمله عندئذ ام لا ولكني على ثقة من أننا سنعمل خير تاريخ أدبي .

اذا فكرنا في مناهج علوم الطبيعة فيجب أن يكون تفكيرنا في أكثرها عموماً، في الوسائل المشتركة بين كل الأبحاث التي تتناول وقائع . وليكن ذلك لأثارة ضمائرنا أكثر من أن يكون لبناء معارفنا . لننظر الى مناهج « التوافيق والتباديل » والى مناهج « البقايا والتغييرات » ، ولكن على أن يكون ذلك للمغزى الذي تتضمنه لا للاطارات والجبهات التي تخططها . ولنستخلص من التفكير في مناهج العلوم قبل كل شيء حذر العلماء ومعنى الدليل عندهم ثم معنى المعرفة حتى نصبح أقل ميلاً مع أهوائنا وأقل إسراعاً الى التأكيد .

المنهج العملي

إنّ عملياتنا الأساسية تتلخص في معرفة النصوص الادبية ومقارنتها بعضها ببعض لنميز الفردي من الجماعي والأصيل من التقليدي ، وجمعها في أنواع ومدارس وحركات ، ثم تحديد العلاقة بين هذه المجموعات وبين الحياة العقلية والاخلاقية والاجتماعية في بلادنا وخارج بلادنا بالنسبة لنمو الآداب والحضارة الاوروبية .

وللنهوض بهذا العمل لدينا عدة وسائل ومناهج. فالتأثر التلقائي والتحليل المتروّي وسائل مشروعة ولازمة ولكنها غير كافية . فلكي ننظم ونراجع عمل نفوسنا عندما تستجيب لنص أدبي ولكي

نقلل مما في احكامنا من تحكم ،لا بد لنا من مساعدات أخرى . ونحن واجدون خير تلك المساعدات فى استخدام العلوم المساعدة ، كمعرفة المخطوطات والمراجع والتواريخ وحياة الكتاب ونقد النصوص ، ثم في استخدام العلوم الأخرى وبخاصة تاريخ اللغة والنحو وتاريخ الفلسفة وتاريخ العلوم وتاريخ الأخلاق . والمنهج هو أن نجمع في كل دراسة خاصة بين التأثر والتحليل من جهة والوسائل الدقيقة للبحث والمراجعة من جهة أخرى ، وذلك وفقاً لما يقتضيه الموضوع فنستعين عند الحاجة بعدة علوم مساعدة نستخدمها حسب ما اعدت له في تهيئة المعرفة الدقيقة .

إنّ معرفة نص ما هي أولاً العلم بوجوده . وفي المعلومات التقليدية مصححةً ومكملة بالفهارس ما يدلنا على المؤلفات التي نريد أن ندرسها .

ثم هي أن نتساءل بالنسبة لذلك النص عدة أسئلة وأن نخضع تأثراتنا وآراءنا لسلسلة من العمليات المختلفة التي تغير منها وتحددها.

١ — هل نسبة النص صحيحة؟ واذا لم تكن صحيحة فهل النص منسوب خطأ الى غير صاحبه أم أنه نص منتحل باكمله ؟

٢ — هل النص نقيّ كامل خالٍ من التغيير أو التشويه أو النقص ؟

وهاتان المسألتان من الواجب النظر فيهما عن قرب بالنسبة للخطابات والمذكرات والخطب ، وفي الجملة بالنسبة لكل الطبعات التي صدرت بعد موت المؤلفين . والمسألة الثانية تعرض دائماً كلما كانت النسخة التي بين أيدينا طبعة حديثة غير الطبعة التي أشرف

عليها المؤلف .

٣ – ما هو تاريخ النص ؟ تاريخ تأليفه لا تاريخ نشره فحسب ، تاريخ اجزائه[1] لا تاريخه جملة فحسب .

٤ – كيف تغير النص من الطبعة الاولى الى الطبعة الاخيرة التي طبعها المؤلف ؟ وعلام تدل التعديلات التي أحدثها المؤلف من حيث تطورُ ذوقه وأفكاره[2] ؟

٥ – كيف تكوّن النص منذ أول تسويده الى الطبعة الاولى؟ وعلام تدل التسويدات ، ان وجدت ، من حيث ذوقُ الكاتب ومبادؤهُ الفنية ونشاطه النفسي ؟

٦ – ثم نقيم المعنى الحرفي للنص ، معنى الالفاظ والتراكيب مستعينين بتاريخ اللغة وبالنحو وبعلم التراكيب التاريخي[3] ثم معنى

(١) انظر الى عمل Villey عند نشره لكتاب مونتين والى الطرق الماهرة التي استخدمها في حذر ودقة . (المؤلف)

(٢) ليس من الممكن ان نسرف في الاعجاب بمقدرة بعض اولئك الادباء الذين يقدرون انفسهم بما يستشعرون من اشمئزاز فتراهم ينفرون من الالفاظ دون ان يعرفوا معناها . ولقد دقّ صحفيون بل واساتذة ممن ينهضون للدفاع عن الآداب، ناقوس الفضيحة باسم «التعديلات variantes» لانهم يمقتون الدراسة الجافة المقفرة التي تتناولها ولكنهم لم يفكروا في ان « التعديلات » التي تتعلق بنص فرنسي ليست كتلك التي تتعلق بنص لاتيني او يوناني وانها ليست أخطاء مادية من الناسخين بل دلائل حالات متتابعة في تعبير الكاتب ومن ثم شواهد نشاطه النفسي وتطور ذوقه مما يجعل تلك الدراسة اثمن الدراسات في الأدب . (المؤلف)

(٣) هذه نصيحة مبتذلة نظرياً ولكنها قليلة الانتشار عمليا . (المؤلف)

الجمل بايضاح العلاقات الغامضة والاشارات التاريخية او الاشارات التي تتعلق بحياة الكاتب نفسه .

٧ — وبعد ذلك نقيم المعنى الادبي للنص ، اي نحدد ما فيه من قيم عقلية وعاطفية وفنية ، ونميز استعمال الكاتب الشخصي للغة من الاستعمال السائد بين معاصريه والحالات النفسية التي ينفرد بها من الصيغ العامة للاحساس والتفكير كما نستخلص ما يرقد تحت التعبير العام المنطقي عن افكاره من صور وآراء اخلاقية واجتماعية وفلسفية ودينية لم يشعر المؤلف بالحاجة الى العبارة عنها وان كونت الاساس الدفين لحياته العقلية وذلك لانه كان يفهمها في نفسه كما كان الغير يفهمونها عنه دون حاجة الى التصريح بها .

سوف ندرك في نبرة او ومضة او تركيب الاغراض العميقة الخفية التي كثيراً ما تصحح وتغني بل قد تعارض المعنى الظاهر للنص .

وفي هذا بنوع خاص يجب ان نستخدم الاحساس والذوق الشخصيين ولكن في هذا أيضاً يجب ان نحذرهما ونراجعهما حتى لا نعرض انفسنا تحت ستار وصفنا « لمونتين » او « فني » . يجب ان يُدرك المؤلف الادبي اولا في الزمن الذي ولد فيه بالنسبة الى مؤلفه والى ذلك الزمن يجب ان يعالج التاريخ الادبي على نحو تاريخي . وهذه حقيقة معروفة ولكنها لم تصبح بعد حقيقة مبتذلة .

٨ — كيف تكوّن المؤلف الأدبي؟ اي نوع من الامزجة استجاب لاي نوع من الملابسات فخلقه ؟ وحياة المؤلف هي التي تنبئنا عن ذلك . ثم من اي المواد تكوّن ؟ وهذا ما يخبرنا به البحث عن

المصادر على أن نقصد من هذا اللفظ الى معناه الواسع فـلا نقتصر على البحث عن المحاكاة الواضحة او المسخ المفضوح بل نعدوعا الى كل آثار التقاليد ومخلفاتها الشفوية والكتابية . ومن الواجب ان نصل في هـذا الاتجاه الى اقصى غايات الايحاء والمسايرة التي يمكن ان تدركها .

٩ – أي نجاح لاقى المؤلّف وأي تأثير كان له ؟ والتأثـير لا يتفق دائمـــاً مع النجاح . وتحديد التأثير الأدبي ليس الا دراسة عكسية للمصادر. فمنهج البحث فيهما واحد. وتحديد التأثير الاجتماعي أكثر أهمية وأكثر مشقة في ملاحظته . وفهارس عـدد الطبعات الاولى والطبعات التالية يبين نسبة انتشار الكتاب منذ خروجه من يد الناشر. وفهارس المكتبات الخاصة وقوائم تركات الكتب وقاعات المطالعة تدلنا على ما صار اليه فنعرف الاشخاص والطبقات الاجتماعية والمقاطعات التي انتشر فيها الكتاب ، واخيراً نجـــد في تعليقات الصحف وفي الخطابات الخاصة وفي المذكرت الشخصية وأحياناً في التعليقات التي يكتبها القراء على الهوامش وفي المناقشات التشريعية وخصومات الصحف وفي القضايا معلومات عن الطريقة التي قرىء بها الكتاب وعن الرواسب التي خلّفها بالنفوس .

هذه هي العمليات الأساسية التي تؤدي بنا الى المعرفة الدقيقة الكاملة بالكتاب وان كانت تلك المعرفة في الواقع لا يمكن أن تبلغ درجة الكمال . وكل ما تستطيع أن تصل اليه هو أن يكون النقص فيها أقل ما يمكن . ثم نطبق نفس تلك العمليات على الكتب الأخرى للمؤلف وعلى كتب المؤلفين الآخرين ونجمع الكتب تبعاً

لما بينها من وشائج في الموضوع وفي الصياغة وبفضل تسلسل الصياغات نضع تاريخ الفنون الأدبية ، وبتسلسل الأفكار والاحساسات نضع تاريخ التيارات العقلية والاخلاقية . وبالمشاركة في بعض الالوان وبعض المناحي الفنية المشتركة بين الكتب التي من نوع أدبي واحد ومن نفوس مختلفة نضع تاريخ عصور الذوق .

وفي هذا التاريخ الثلاثي لا نستطيع أن نسير الا اذا افسحنا المجال وأفسحناه واسعاً للمؤلفات الضعيفة والمنسية [1] فهي تحيط بعيون المؤلفات وتمهد لها السبيل وتخطط اتجاهاتها وتعلق على متونها وتكون مراحل الانتقال بينها كما توضح مصادرها ومدى تأثيرها . والعبقرية بنت زمانها ولكنها دائماً تعدوه . وصغار الكتاب حبيسو عصرهم في كل شيء . فحرارتهم في درجة حرارته ، ومستواهم في مستوى الجمهور ، ومن ثم تتضح ضرورة المؤلفات الميتة لتمييز اصالة

(١) لا استطيع أن أصدف عما أجد من سرور في الاحالة على بضع صفحات من بيجي : Péguy (الكراسات الخمس عشرية ، السلسلة الحادية عشرة – الكراس الثاني عشر – شبابنا – ص ٨ – ١٠) يجيد فيها الأبانة عن فائدة الوثائق التي لا تمثل « الادوار الرئيسية ، اللعبة الكبرى ، الطراز الممتاز » بل تمثل الافراد العاديين المتوسطين المغمورين الذين تنسج منهم الشعوب . تلك الصفحات تدافع ضد اولئك الذين يمكن ان يحملوا مع بيجي نفسه (السلسلة الثانية عشرة ، الكراسة الاولى – فيكتور ماري كونت هيجو ص ٢٢٥) على لومنا اذ لا نقتصر على عيون الأدب بل نجمع حولها أنواعاً مختلفة من النصوص الأقل جمالاً نبحث فيها عن الأفكار السائدة لعصر ما – الافكار التي تتكون منها التربة التي ترسل فيها عيوب الادب أعراقها .

الكاتب الكبير وتحديدها ، تلك الاصالة التي لا ترجع الى مصدر ولا يمكن ان تنتقل الى الغير . وهي لازمة لايضاح المبادىء الفنية ، المتواضع عليها في مدرسة ما ، وطرق الصياغة المألوفة في نوع ما ، والاغراض المطردة والعادات المألوفة في جانب مـــا من الأدب . واخيراً ينتهي التاريخ الأدبي بايضاح العلاقات التي تقوم بين الأدب والحياة . وهنا يتصل الادب بالاجتماع . فالادب مرآة الجماعة . تلك حقيقة لا شك فيها ، وان صدر عنها كثير من الاخطاء . الادب يكمل صورة الهيئة الاجتماعية اذ يعبر عن كل ما لم يمكن تحقيقه من حسرة وقلق وآمال للرجال . وهو بهذا لا يزال يُعتبر تعبيراً عن الهيئة الاجتماعية ، ولكن على ان نُعطي هذا اللفظ معنى لا يقتصر على النظم والاخلاق الاجتماعية بل يمتد الى ما لم يوجد بالفعل — الى الخفايا التي لا تُفصح عنها الوقائع ولا وثائق التاريخ .

ثم انه لا يكفي ان نتبين العلاقة العامة القائمة بين الادب والهيئة الاجتماعية فنحن لا نقنع بان نرى صورة أو مرآة بل نريد أن نعرف الأثر والاستجابة المتبادلين بينهما : أيهما يسبق وأيهما يتبع ؟ وفي أي حين يقدم أحــدهما النموذج ويقلده الآخر ؟ وفي الحق أنه لا شيء أدق من البحث عن تلك المبادلات .

وليس من الشاق إدراك أنه من الواجب أن نقسم تلك المشكلة العامـــة الى مشكلات جزئية وانه لا بد أن نصل الى عـدد لا حصر له من الحلول الخاصة قبل العثور على حل لا اقول عاماً بـل تخطيطاً لحل عام يصدق بنحو مقارب على عصر ما او حركة ما .

وانه لوهم بعيد ان نعرض دفعة واحدة لتأثير مجموعة من المؤلفات

على مجموعة من الوقائع ، فتأثير الادب في الثورة لا يمكن أن يُدرك الا عندما نكون قد رصدنا في صبر ، المبادلات العديدة التي حدثت بلا انقطاع بين الادب والحياة منذ سنة ١٧١٥ بل منذ سنة ١٦٨٠ الى سنة ١٧٨٩ . واذا كان للأدب تأثير فيها فان ذلك لم يكن منه ككتلة واحدة ولا على كتلةمن الوقائع ،وانما كان بعددٍ لا حصر له من التأثيرات الجزئية في عدد لا حصر له من النفوس الفردية خلال اكثر من قرن حتى انتهى الامر في سنة ١٧٨٩ بأن رأينا أن قرناً كاملاً من الأدب قد تسرب ورسب في طبقات مختلفة وعلى نسب متباينة في الوعي الجماعي للامة الفرنسية وظهر في طريقة استجابتها للوقائع .

المنهج والاخطاء

ونحن عرضة في كل العمليات التي وصفتها الى الخطأ دائماً . وخشيةُ الخطأ باستمرار هي طريقتنا الحقيقة بل هي كل طريقتنا في القيام بعمل علمي . وهذا الاتجاه في المنهج الذي عرَضْتُه هو الذي يضايق ما ألِفَ « النقاد العبقريون » [1] من عادات أدبية . نحن دائماً

(١) من الواضح انني باستخدامي هذه العبارة لا أقصد الى ان هؤلاء النقاد قد احتكروا العبقرية ولكني اريد أن اقول أنه لا غنى لهم عنها وانه لمن الأفضل ان نعمل فرنسا « للسنة الادبية » : Année littéraire من أن نكتب كما يكتب « فاجيه » و « ليمتر » عندما لا نكون نحن « فاجيه » او « ليمتر » . ومن الواجب ان ندرك تمام الادراك انه لا يمكن ان نعتاض عن العبقرية بل ولا عن الذكاء بادعائنا تملكهما . وهذه حقيقة قاسية ولكنها صحيحة عندما يُحْسَن فهمها (المؤلف) .

في خوف من أن نخطىء ونحن نحذر باستمرار آراءنا، بينما هم يعتزون بها ويريدونها جديدة شيقة نافعة . نريدها صادقة وهم يسيرونها ويزينونها في مهارة . نحن نحتاط كي لا تعدو آراؤنا الحقائق الثابتة . إن مونتين وروسو ليسا الا الثقل الذي يلعبون به ولا يعنيهم الا ان يحملوا الناس على الاعجاب بقوتهم ومهارتهم . نحن نريد أن ننسى حتى لا يرى أحد غير مونتين وروسو ، يراهما كما كانا وكما يستطيع أن يراهما كل انسان يُعمل فهمه في النصوص بامانة وصبر . والنقد الذاتي لا يجد كل هؤلاء الهواة الا لانه أسهل مجالٍ يستطيعون فيه حمل الناس على تقديرهم هم ، بدلاً من تقدير الكتاب الذي يتظاهرون بدراسته .

منهجنا كله كما قلت يقوم على الفصل بين التأثر الشخصي والمعرفة الموضوعية التي تحد من ذلك التأثر وتراجعه وتفسره لصالحها .

ولكن الأخطاء تتربص بنا في كل حين وفي كل ناحية أثناء إعدادنا لتلك المعرفة الموضوعية . ومن بين تلك الأخطاء أميّز الأنواع الأساسية الآتية :

١ — معرفتنا بالوقائع التي نعمل فيها ناقصة أو كاذبة . فنحن لم نحص في يقظة كل النصوص التي نريد دراستها . ونحن نجهل عمل سابقينا والنتائج التي وصلوا اليها . وعلم المراجع هو العلاج ، وهذا علم جاف لا طعم له اذا اتخذنا منه غاية في ذاته، ولكنه أداة ضرورية قوية لاعداد المادة التي سنصوغها افكاراً صادقة [١] .

(١) كلمة « المراجع » ايضاً من تلك الكلمات التي لا تنطق بها بعض النفوس المشرقة الا باشمئزاز وكأنه لا يخطر لهم ببال أنهم لا يكادون يتحدثون

وقد يكون العيب في كسلنا . فنحن نسجل في سهولة ما انتهى اليه سابقونا كنتائج نهائية اذا كانت تلك النتائج لا تصدم معتقداتنا أو مشاعرنا . وكثيراً ما تكون نظرتنا فيها نظرة منطقية فحسب لا نظرة نقدية . فلا نختبر اعماق الكتاب ولا نفحص في حذر كاف قيمة ادلته . يجب أن نقدّر أولا الطريقة التي ألّف بها الكتاب وأن نرى بوضوح ماذا استخدم وماذا اهمل ، ثم نستوثق من ان تأكيداته لا تعدو الوسائل التي تقوم عليها . واخيراً يجب أن نزن في دقة ما أتى به الكتاب من معرفة جديدة صحيحة ندين بها له .

٢ — نحن نقيم علاقات غير صحيحة إما لجهلنا ، وهذا يلحق بالخطأ السابق ، واما لعدم صبرنا ، وعلاج هذا أن نخضع لنظام عقلي وأن نأخذ أنفسنا بالعمل البطيء ألذي تنضج معه الفكرة . واخيراً

عن حياة موليير وراسين حتى يحتاجوا الى معرفة بالمراجع ، وذلك لانهم بلا ريب لا يطمحون الى اختراع حياة المؤلفين . وهم لا ينجحون في الاستغناء عن كل المراجع الا عندما يكتفون بترديد معلوماتهم التي حصلوها في المدارس الثانوية بلباقتهم العقلية وقدرتهم على « الانشاء » او عندما يقعون بمصادفة سعيدة على كتاب لاحد الباحثين فيمسخونه . اننا بمجرد ان نخرج من التأثرية لا نستطيع ، بدون علم المراجع ، ان نعرف المظان التي أعدّت فيها المواد اللازمة لدراستنا . ثم أن تحرير فهارس للمراجع ليس عملا آلياً لا دخل للذكاء او للذوق فيه اذ يجب ان نمتلك الموضوع ونرده الى افكار لنستطيع ان نضع ثبتاً للمراجع يقودالطالب الى الكتب المفيدة ويوجهه خلال ادغال الكتب . وذلك لان بين المراجع الجيد والردىء كما أن بين كتب اولئك الادباء الذين لا يتهمون بالبحث اي اتهام كتباً تدل على ذكاء وأخرى خالية منه .

قد يكون ذلك لاننا نثق بالتفكير ثقة هوجاء . والتفكير خدّاع في العلوم التاريخية حيث لا نكاد نملك وقائـع فيها من البساطة والدقة ما يحكم التفكير فلا أقل من ان نقصره على العمليات القصيرة كاستخلاص نتيجة مباشرة عندما يلوح بدقـة أنها النتيجة الوحيدة الممكنة . وأما سلاسل التفكير فمن الواجب التخلي عنهـا اذ انها كلما ازدادت طولا ازدادت ضعفاً . فاليقين الذي ينتج عند أول خطوة في اتصالنا بالواقع يأخذ في التهافت عند كل خطوة تبعدنا عن تلك الوقائع . ومهما كان حرصنا عـلى الدقة في التفكير فأنه كلما تقدم بنا الاستنباط زاد عدد الممكنات واصبح كل اختيار تحكما . ومن ثم وجب عقب كل عملية من عمليات المنطق الشكلي أن نعود الى الواقع فنستقي منها ما يكفي لاجراء العملية التالية . يجب ألا نستخلص نتيجة من نتيجة اخرى إلا بمنتهى الحذر والتحرج .

ومن ثم يجب ان نفسر النصوص تفسيراً مباشراً . فلا نُحل قط نصاً محل نص آخر كما نفعل على غير وعي في الكثير من الاحيان اذ ننقل الوثائق التي ندرسها الى لغتنا العقلية . وهذا النقل يفقر الاصول او يحورها بل يطردها كلها من عقلنا . « م كتب ا ولكن ا هو نفس ب واذا كان م قد الف ب فاذن .... » ثم لا نعود نذكر ا الذي هو النص الحقيقي ونقصر عملنـا في ب النص المزيف الذي كوناه بثقة مسرفة سهلة في حكمنا على الذاتية .

٣ ـ نحن نسرف على نحوٍ غير مشروع في تقدير مدى الوقائع التي لاحظناها . نلاحظ شبها فنجعله مصدراً : « م يشبه د » تصبح « م ينسخ أو يقلد د » . نلاحظ مصدراً فنقرر انه مباشر بدون

واسطة : « م يستوحي د » ولكننا ننسى انه قد كان هناك أو من الممكن أن يكون هناك « د » وان هذا الاخير هو الذي استوحى د . وهو الذي اوحى الى م . نلاحظ علاقة دقيقة محـــددة جزئية فنستخلص منها نتيجة رحبة عامة . « هذه الجملة يمكن تأريخها بفضل هذه الاشارات التاريخية . واذن فكل الفصل واذن فكل الكتاب قد كتب في ذلك التاريـخ » والمبدأ هو ان كل فقرة لا تؤرخ الا نفسها . وليس من المسلم به ان تؤرخ قطعة كبيرة .

كل واقعة ندرسها او كل مجموعة من الوقائـــع تحجب مؤقتاً الوقائع الاخرى . ندرس الاصول الانكليزية او الالمانيـة لمذهب الرومانتزم . فتدخل التقاليـــد الفرنسية في الظلام . ندرس تأثير لامنيه . Lamennais في هيجو او لامارتين فنحذف من عقولنـا كل القنوات التي قدتكون نفس الافكار ونفس الحالات العقلية قد تسربت خلالها اليهما معاً وفي نفس الوقت . وليس من الهين أن نحتفظ دائماً امام بصيرتنا بخريطة كامـــلة لتيارات الفكر والفن العديدة مع تحـــديد مواقف الكتّاب الاساسيين منها . وادراك المبادلات التي تجمع بينهم على نحوٍ كثيراً ما يكون غامضاً ملتويا . ومع ذلك فمن الواجب أن لا تغيب عنا قط تلك الخريطة مهما كان الركن ومهما كان الممر الذي ندرس . واخواننا الباحثون عن التأثيرات المنقبون عن المصادر مقتنعون في سهولة مسرفة بانه ليس ثمة الى روما غير طريق واحدة .

نحن نمدّ دائماً من معنى الوقائع والنصوص ، والواجب عـــلى العكس من ذلك أن نضيق منه في أمانة . لا يجوز أن نبالغ مضحّين

بالأصابة . نعم أن الناقد لا يستطيع أن يدهش إلا بمقدرته على أن يحمل الأدلة على أن تُعطى أكثر مما يبدو أنها تحمله ، ولكن لنقبل العدول عن أن ندهش . ولنكتفِ باستقاء الحقيقة المحسوسة التي لا تقبل الشك ، الحقيقة « الجلف » كما يقول بسكال عن الحقيقة الهندسية .

الوقائع يحدّ بعضها بعضاً . فلنبحث دائماً عن تلك التي تذهب بشيء من المعنى الذي أدهشنا في غيرها ولا ننس قط أن ندخل « الوقائع السلبية » في حسابنا . ولنعدّ أنفسنا لخسارة كثير من النقط ، فنحن لا نعلم قط كل ملابسات واقعةٍ ما ولا كل أفكار كاتب ما . وفي أوضح تفسيراتنا قلما يخلو الامر من الخطأ . فلنكثر اذن من الملاحظات على نحو تتعادل معه الاخطاء في التفاصيل ويمحو بعضها بعضاً. ولننثر في طريقنا أكبر عدد ممكن من الأمارات ولنضيق من المسافات التي لا بد لادراكنا من عبورها بين واقعة ثابتةٍ وأخرى .

٤ – نحن نخطىء في استخدام المناهج الخاصة فنطلب الى أحدها نتيجة لا يستطيع ان يعطيها الا سواه . نحن نؤكد وقائع معتمدين على استنباط أوليّ أو تأثر شخصي . وهذه حالات مفضوحة . ولكننا نستخدم حياة الكاتب مثلاً لنحدد القيمة العقلية او الاخلاقية لمؤلف ما ،وهذا حسن اذا كنا نريد أن نحكم على الكاتب وإن تكن اهدافه وقت تأليف كتاب ما غير خاضعة على نحو جبري لأحداث ماضية . فالخمسة الاطفال المودعون في ملجأ اللقطاء وشريط « ماريون » Marion لا تدلنا على الاتجاه الأخلاقي لجان

جاك روسو في سنة ١٧٦٠ وهي أقل دلالة على الفضيلة الاخلاقية ، على ما يمكن أن نسميه الذكاء في « اميل » . هذه المشكلة لا تحلها حياة الكاتب بل استجابة الجمهور . ففي تلك الاستجابة لا تظهر حياة روسو وخلقه كما كانا في الواقع بل كما تصورهما القراء في صور صادقة أو كاذبة . وهذه الصور هي التي يمكن أن تدخل الى حد قريب او بعيد في الأثر الذي أحدثه الكتاب .

ونخطىء عادةً في اختيار الوقائع الدالة ، إذ أننا فضلاً عن التحيز والمحاباة اللذين يضللان ، كثيراً ما يأخذنا الوهم فنرى من الوقائع المتطرفة وقائع دالة ولكن الوقائع شاذة بحكم تطرفها ذاته ، ومن ثَمّ فهي ليست دالة الى نهاية قصوى في الدقة . وهي تحمل دائماً في دراساتنا جانباً كبيراً من الفردية يجعل قيمة دلالتها غامضة غير ثابتة . إن عيون المؤلفات وقائع متطرفة . وإن « فدر » لدالة على التراجيديا الفرنسية ولكن ربما كان فيها من راسين اكثر مما فيها التراجيديا الفرنسية .

والوقائع التي تعتبر دالة في وضوح هي الوقائع المتوسطة . نجمع عدداً كبيراً منها فيخلص لنا محولها المشترك وبذلك يصبح من السهل أن نختار أكثرها دلالة ، أعني تلك التي تمثل أنقى الصور وأقربها للنموذج العام، ويكون هذا في ما ينير عيون المؤلفات التي نعتبرها وقائع متطرفة . وبالمقابلة بين النوعين الممتاز والمتوسط يظهر كل ما يحمل الممتاز من معنى دال. وبذلك نرى بوضوح كيف والى أي حد يعتبر هذا النوع الممتاز دالا ، وإن ظل فريداً لا شبه له .

ولكن الوقائع المتوسطة لا يمكن في الاعم ان تنطوي تحت مجموعة متجانسة وهي تذهب في اتجاهات شتى . لقـــد نظم المسيو مورنيه Mornet في دراسته الجميلة « للأحساس بالطبيعة في القرن الثامن عشر»: (Le sentiment de la nature au 18ième siècle) منهجاً أصيلاً يتبين بفضله اتجاه الحركات الفكرية وسط التيارات المتعارضة والدوّامات Tourbillon ، فهو ينظم الوقائع المتعارضة في سلاسل متوازية مرتباً كل سلسلة ترتيبــاً تاريخياً . فالسلسلة التي تأخذ في التزايد تمثل الاتجاه الجديد والسلسلة التي تأخذ في التناقص تمثل المخلفات التي تعتبر امتداداً للماضي . والاكتفاء بقطاع واحد نقتطعه في برهة واحـدة من التاريخ الادبي يتركنا في حيرة ازاء مجموعات من الوقائع المتعارضة يكاد يوازن بعضها البعض .

ونجد عند مورنيه : Mornet أيضاً وعند كازميان Casamian في بحثه عن الرواية الاجتماعيـــة في انكلترا مناهج لحل المشاكل الدقيقة التي تتعلق بتأثير كاتب او كتاب . ونحن غالباً نحلّ تلك المشاكل صادرين عن ميل سابق في نفوسنا لتقدير العبقرية ، نوفر عليها فضل الابتداع والتأثير دون ان ننظر في الفروض الاخرى الاربعة او الخمسة التي يمكن أن نضعها الواحد بعد الاخر بعيداً عن الغرض المألوف الذي يرد كل شيء الى العبقرية :

ا – من الممكن ان يكون الكتاب الممتاز قـــد دق ناقوس النصر الذي احرزه آخرون .

ب – وقد يكون استولى على الحصن بعد ان ضعف . وقام بالهجوم الاخير للاستيلاء عليه .

جـ - أو نفخ في البوق الذي دعا الى الهجوم .

د - وقد يكون جمع الرجال المشتتين في مهامّ الحياة وحدد للرأي الشائع هدفاً .

ومردّ كل هذه الفروض إلى أن الكتاب الممتاز يأتي بعد كتب أخرى من الواجب ان ندخلها في حسابنا .

٥ - واخيراً لما كنا لا نحب أن يذهب جهدنا سدى فاننا نبالغ في قيمة ما نصل اليه من يقين مع أن الوثائق والمناهج التي توصل الى يقين حقيقي قليلة جداً . واليقين بوجه عام يطّرد اطّراداً عكسياً مع عمومية المعرفة . وهذا ما يجب ان نذكره . ولكن الاحتمالات والمقاربات جديرة بان لا تحتقر . ولن يضيع سدىً جهدٌ يدنينا بضع خطوات من المعرفة التامة الوضوح ، ومن الواجب ان نعرف لما نصل اليه من نتائج، قدرَهُ حتى لا يأخذنا اليأس ، وأن لا نسرف في ذلك التقدير حتى نثمل برضى احمق . والنسبية هنا كدأبها في كل مجال هي مبدأ المنهج كما هي قِوام صحة الخلق .

إن عيبنا المألوف هو رَفْعُ ما تنتهي اليه دراستنا من حقائق ناقصة درجات في مراتب اليقين ، بل رفعُها أحياناً الى مستوى اليقين المطلق . وهكذا تصبح الممكنات احتمالاتٍ والاحتمالات ترجيحاتٍ والترجيحات وقائعَ واضحةً والفروض حقائقَ ثابتةً ويمتزج الاستنباط والاستقراء بالوقائع التي صدر عنها فاذا بهما في قوة الملاحظات المباشرة .

ومع ذلك فمنذ عشرين او ثلاثين سنة أصبح المؤرخون والنقاد الذين يستخدمون المناهج التاريخية والنقدية أكثر حذراً وقسوةً

على أنفسهم . وحالة سان بيف النفسية الدائمة الحذر واليقظة إن لم تكن قد صارت عامة فهي لم تعد شاذة . ومصدر التقدم هو ان الاساتذة يجدون بعد ممارسة الدراسة زماناً تلاميذ يبزونهم وكأنهم يملكون بطبيعتهم ذلك الضمير العلمي الذي لم يصلوا اليـــه هم إلا متأخرين وبعد مشقة .

تقسيم العمل واخطاره

قد يكون في المنهج الذي وصفته ما يبعث الرهبة . ولقد يتساءل المرء أي حياة انسانية تتسع لدراسة الأدب الفرنسي اذا كانت مقتضيات المنهج على هذا النحو من التعدد والقسوة ؟ والذي لا ريب فيه هو انه لا يمكن أن تكفي حياة واحدة للمعرفة الكاملة . ولكن ما يعجز عنه عمر تستطيع أعمار أن تعمله . إنّ تاريخ الأدب الفرنسي مشروع جماعي . فليحمل كلّ حجره . وقد أحسن تسويته ، وهذا لن يمنع اي انسان من أن يقرأ مـا يريد للذته الخاصة .

بل إن المرء لا يستطيع فيما عدا مسائل البحث الصغيرة أن يعالج علاجاً كاملاً موضوعاً خاصاً مع انفراده بكل الاعمال التي يتطلبها ذلك العلاج . ولهذا كان من الواجب ان نعرف كل مـــا سبقنا الغير الى عمله وان نبدأ من النتائج التي انتهوا اليها . ومن ثمّ يتضح انه من المستحيل أن نصل الى شيء بدون معرفة جديدة بالمراجع .

إن تقسيم العمل في الدراسات الادبية هو وحده التنظيم العقلي المنتج . فيتعهد كل فرد بالعمل الذي يتناسب مع قواه وذوقـه . فيكون هناك باحثون ينصرفون الى تهيئة المواد الاولية والكشف

عن الوثائق ونقدها واعداد وسائل العمل . ويُخصص آخرون للمؤلفين ولأنواع الادب المختلفة أبحاثاً منفردة ، كما يحاول البعض التأليفَ في المسائل الكلية . وأخيراً يتولى نفر أمر تبسيط النتائج التي تصل اليها الابحاث الاصيلة واذاعتها .

وانا بعد لا أرى — ما يراه « لانجلوا » — من أنه من الخير أن نفصل فصلاً تاماً بين المبتكرين والمبسّطين بين الباحثين عن التفاصيل والذين يتولون التعميم . وذلك لان الانسان لا يفهم الجزئيات الا بالكل ولا يعرف الكل الا بالجزئيات . والمرء يسيء التبسيط اذا لم يعرف كيف تصنع المعرفة وما قيمة النتائج المكتسبة . واذن فلتقسيم العمل أخطاره . ثم أن الحياة قصيرة، والانسان لا يُحسن الا ما يعمله بميل خاص واستعداد طبيعي. ولذا كان تقسيم العمل ضرورة بالنسبة الى البناء الذي نريد اقامتــه وبالنسبة للعمال الذين يعملون فيه .

ومع ذلك فهناك زمن لا يكون فيه هذا التقسيم ضرورياً ولا مرغوباً فيه ، هو زمن التمرين . وإنه لمن الخير أن يمرن طلبة الادب في الجامعة على كل العمليات التي يُبنى بها التاريخ الادبي ، وأن يألفوا كل المناهج الواحد تلو الآخر فيتعلمون كيف يُعدون ثبتاً بالمراجع ، ويبحثون عن تاريخ ، ويعارضون بين طبعات متعددة ، ويستغلون التسويدات المختلفة لكتاب ممتاز ويبحثون عن مصدر ، ويتابعون تأثيراً ، ويوضحون أصول حركة أدبية ، ويميزون العناصر التي تدخل في مركب مختلط . وليحاولوا التأليفات الجزئيـــة وليعرضوا بعض المسائل عرضاً لا يذهب فيه التبسيط بما في المعرفة

من دقة وثبات . وبعد ذلك فليعملوا في الحياة ما يريدون وما يستطيعون فانهم سيكونون عندئذ قد مروا بكل « الأقسام » وسيكونون قد علموا كيف تُصنع المعرفة الادبية وكيف تستخدم. واذا كانوا لا يتعلمون هذين الأمرين وخصوصاً أولهما في الجامعة فأين ومتى سيتعلمونهما ؟

بل لربما كان من الخير ان يحتفظ فيما بعد من يتولون التبسيط والتعميم بما ألفوا فيحاولوا من حين الى آخر بعض مشاكل البحث الدقيقة ولو كانت تلك المشاكل نقداً للوثائق او اعداد كتاب للنشر. وعلى العكس يستفيد الباحث من محاولة التأليف العام والحديث الى الجمهور في بعض الاحيان . ومبادلة الاختصاص على هذا النحو تحتفظ للنفوس بمرونتها وقوتها ، وتقي البعضَ من الهزال والآخرين من التقلص ، كما تحول دون ذلك الجفاف الذي يولده تقسيم العمل حتى في النشاط العقلي . والجفاف داء لا يفلت منه متخصصٌ ، ولو كان تخصصه في الخفة والاستهتار .

لن نترك العبقريات بلا عمل ... !

يخشى بعض النقاد ان يكتم المنهج أنفاس العبقرية ثم يتحمسون في دفاعهم كأن لهم في ذلك مصلحة خاصة ، يهاجمون آلية الجهد في عمل « الفيشات » (البطاقات) وعقم البحث. انهم يريدون افكاراً .

ألا فليطمئنوا . فالبحث ليس غاية بل وسيلة . و « الفيشات » ادوات للمد من المعرفة ووقاية من اخطاء الذاكرة — ان غايتها أبعد منها . ليس هناك منهج يبرر آلية الجهد ، وقيمة المناهج

تتناسب وذكاء من يستخدمونها . نحن أيضاً نريد أفكاراً ولكننا نريدها صادقة .

واذن فكل النشاط الروحي الاصيل ، من احساس الى تحليل الى تفكير ، باقٍ مع المنهج الدقيق . وللقدرة على اختراع الافكار ان تعمل في حرية ، فنحن لا نحد من قوة الذكاء ولا من خصوبته ولكننا نريد أفكاراً صادقة ولذلك نريد أدلةً وتحقيقات . نحن نطلب ان تكون الوثائق ذات قيمة حقيقية وان يأخذ المرء نفسه بفهم ما يريد تفسيره . وعندما لا نجد أدلة ولا تحقيقات ولا نقداً للمواد الاولية ولا معرفة دقيقة فاننا رغم كل ذلك لا نطرح ومضات العبقرية بل نقبلها كفروض نعمل في مراجعتها والتمييز بين ما فيها من زيف ومعدن جيد . وهكذا ينفق ، في صبرٍ ، بعضُ الباحثين اعمارهم في استخلاص الحقيقة من الاعيب العبقرية المهملة[1] .

نحن لا نحد من مجال الابتكار بل نضاعفه إذ نقدم اليـــه حقلا جديداً غير محدود . فخَلْق الافكار ليس كل شيء بل من الواجب ان نحقق أيضاً مناهج . ليست هناك مناهج تصلح لكل شيء وانما هناك مبادىء عامة . وفيما عدا ذلك فكل مشكلة خاصة لا تحل إلا بمنهج خاص يوضع لها تبعاً لطبيعة وقائعها والصعوبات التي تثيرها .

---

(١) ومع ذلك فمن الواجب الا تسرف العبقرية في الاهمال . وانه لمن المحزن ان نرى احياناً الموهوبين يكتبون عن كبار أدبائنا كتباً لا يضمون فيها الا بعض محسّنات بلاغية بحين لا يستطيع طالب الليسانس المتوسط الثقافة ان يعلم منها ايَّ شيء على اي نحو كان . إنّ القدرة اساس التكليف . والعبقرية والمواهب وسائل ولكنها ليست إعفاءات .

بل ان المشاكل لا تضع نفسها وفكرة السؤال تتطلب من العبقرية قدر ما يتطلب الجواب بحيث يكون في دعوتنا الخيال الخالق الى العمل في اختراع المشاكل والمناهج ما يمد من نفوذه ويفتح امام نشاطه ابوابا من الممكنات لا حد لها . فليطمئن اذن رجالنا ذوو العبقرية فلن نتركها بغير عمل .

يكفي المنهج ان يثبّت ويحقّق

ولكن هل تستحق الحقيقة التي نصل اليها من دراساتنا الادبية ما يُبذل في سبيلها من جهد ؟ هذا شكٌّ يعرفه الكثيرون . وفي جواب مونتين ما يكفيني . واذا لم نكن قد خلقنا على نحو يمكننا من معرفة الحقيقة فلا أقل من ان نبحث عنها . ولكن مهنة التحدث عن مؤلفات الغير لن يكون لها أي نبل اذا لم يسفر جهدنا عن قليل من الحقيقة نقدمه للغير الى جانب ما نجده من لذة شخصية . والتعليم بالنسبة لاستاذ الادب بنوع خاص لن يكون الا دجلاً او نفاقاً اذا كان كل منا لا يدرّس الا اهواءه ومعتقداته . هناك جانب كبير من الادب لا يُمكن ان يدرس . فنحن لا نستطيع الا ان نقول لتلاميذنا « اقرأوا وأحسوا . استجيبوا للمؤلف ، نحن لا نريد أن نحل طرق انفعالنا محل طرقكم لكننا نعلمكم ما هو مادة للعلم ، اي مادة للتدريس . نحن نقدم اليكم كل هذه المجموعة من الحقائق التي — وإن تكن نسبية ناقصة — فهي محقّقة دقيقة : التاريخ وفقه اللغة وعلم الجمال وفن الأساليب وقواعد العروض — كل تلك الافكار المرتبطة بالمعرفة الدقيقة والتي يمكن ان تكون

واحدة في كل النفوس وبفضلها ستستطيعون إرهاف تأثراتكم وتصحيحها وإثراءها بل سترون في عيون الكتب اكثر مما رأيتم وستكون نظرتكم أعمق . ونحن سنبصّركم بكيفية الحصول على هذه المعرفة كما نُعدّكم للعمل على تنميتها اذا دفعكم الميل الى ذلك ، فان لم يكن فلا أقل من أنكم ستعرفون قيمتها وستستخدمونها دون حطٍّ من قدرها ولا اسراف في ذلك القدر . »

ثم إنه لمن الواضح اليوم أن كل اولئك الذين حاولوا منذ قرن أن يعطوا الافكار الادبية شيئاً من ثبات المعرفة العلمية لم يذهب عملهم سدى بالرغم مما تورط فيه الكثيرون من ضلال واوهام . فسان بيف وتين وبرونتيير وكثيرون غيرهم من واضعي الابحاث الخاصة ورسائل الدكتوراة [1] ومقالات المجلات النقدية والعلمية لم

(١) لننظر الى سلسلة الرسائل التي قدمت في الأدب الفرنسي منذ ثلاثين عاماً فسوف نرى أنها تكون كرسائل التاريخ والجغرافيا والاداب القديمة والاجنبية وفقه اللغة والفلسفة مجموعةً يحق لكلية الآداب بجامعة باريس أن تفخر بها . وفي اعتقادي انه لا توجد في اي بلد من بلاد العالم مجموعة تشبهها بما فيها من بحث متين ومن استخدام لذلك البحث في خلق الافكار مع الحرص على فن الكتابة الادبية في التأليف وفي العبارة عن النتائج . ونرى عندئذ في غير مشقة انه قلّ ان احتفظت احدى رسائل الادب الى زمن ما بشيء من قيمتها اذا لم تكن تطبيقاً للمنهج الذي وضعته ، وان بعضاً من اولئك الذين يهاجمونه اليوم قد استطاعوا بفضله انْ يصلوا الى ما في كتبهم من غناء ، وان أكثر النفوس إشراقاً ممن اعتقدوا انهمْ ليسوا في حاجة اليه قد ظلوا متخلّفين – من حيث غنى الافكار وجدّتها – عن بعض النفوس المتوسطة التي تعرف كيف تعمل .

يضيعوا وقتهم عبثاً . فأسس المعرفة الادبية قد اخذت تثبت . كم من حياة كاتب قد نُقبت ومن تاريخ قد حُقق . وكم من مشاكل عن المصادر والتأثير والعروض ... الخ قد حُلت او على الاقل قد وضحت. كان اصول التيارات الكبيرة في الادب والاحساس والاساليب والانواع وتكوين تلك التيارات واتجاهاتها قد وضحت على نحو أدقّ . ونحن لم نتته بعـــد من أي شيء فالعمل لا يزال مستمراً. وفي كل عام يحقق الباحثون موادّ اولية جديدة ويحررون قوائم جيدة يضعونها تحت تصرف مخترعي الافـكار بحيث لن يبقى عذر لذلك الجهل الكسول الذي يلوحون به كقرينة على المواهب[1].

ليس من شك في اننا لا نصل الى أثبت النتـائج الا في أضيق المسائل وان اليقين كما قلنا يأخذ في التناقص كلما أخـذ التعميم في التزايد . وهذه حقيقة تصدق على كل العلوم ، ثم انه لم يكن بـد من أن نبدأ البيت من أساسه وأخذت المعرفة الدقيقة تنمو وترتفع شيئاً فشيئاً حتى وصلت الى اوسع المشاكل .

---

(١) انا أصر على تأكيد ذلك . فنحن لا نصدف عن قراءة النصوص ولا عن ان نملك افكاراً وذوقاً وان نكون أذكياء بل اننا ندعو الى هذا فنطلب القراءة ونطلب كل ما يمكن من الملكات التي ذكرتها فهي كلما ازدادت وفرةً ازداد المنهج انتاجاً . وكل مقاومة توجه الينا مصدرها الكسل . نحن نطلب العمل وكلما ازدادت المواهب وجب ان يزداد العمل . وهناك مقاومات مصدرها الغرور . نريد ان نعمل عملا نافعاً ، أعني ان نبحث عن الحقيقة بدلا من نحاول إدهاش الناس . نريـد ان نقف أنفسنا على تجليـة موضوعنا لا أن نستخدمه في التماس الشهرة . ومن هنا يأتي الحنق .

ها هي تحديدات خصائص الكتاب وها هي الآراء التي تتناول تكوين عيون الكتب وتأثيرها قد اخذت تتعين وتثبت . سنظل دائماً نجهل أشياء في مونتين وبسكال، في بوسويه وروسو ، في فولتير وشاتوبريان وفي كثير غيرهم . كما ستظل هنـــاك متناقضات بنسبة ذلك المجهول . ومع ذلك فكل متتبع لحركة الدراسات الادبية في السنوات الاخيرة لا يستطيع إلا ان يلاحظ ان ميدان الاختلافات قد اخذ يضيق وان مجال العلم والمعرفة اليقينية قد أخذ يتسع حتى لم يعد للحرية مكان كبير اللهم الا ان نستثني اولئك الذين يخفون جهلهم بان يلعبوا لعب الهواة المتعطلـــين او يحتموا بالتعصب لمعتقداتهم . ولهذا لا نكون واهمين اذا تنبأنا بمجيء يوم يتفق فيه الناس على تعاريف عيون المؤلفات وموضوعاتهـــا ومعانيها ولا يختلفون إلا في خيرها وشرها ، اي في اوصافها العاطفية . ولكنهم فيما اظن سيختلفون دائماً حول هذه الاوصاف .

الروح التاريخية اداة سلام

إن عـــدداً من العاملين اليوم لا يهمهم الا ان يروا الماضي كما كان . ولكن آخرين لا يستطيعون ان ينحوا ميولهم الشخصيـــة تنحية تامة وذلك إما لانهم أحمى من الاولين طبعاً، أو لأن موضوعاتهم حارة ومع ذلك يُنجزون كمؤرخـــين ونقاد اعمالا جيدة . هناك مفكرون أحرار وبروتستانت وكاثوليـك واناس من كل الديانات يزداد عددهم يوماً بعد يوم ، يدركون أن لا بد للعمل في الادب من نظام ومناهج دقيقة وهم يأخذون انفسهم باستخدامها . واذا كانت

كتاباتهم تحتفظ رغم ذلك بآثار من مشاعرهم الخاصة فاننا على الاقل نجد الى جوار هذه الآثار معلومات موضوعيــــة محققة وفي طريقة عرضهم من الامانة ما لا يصعب معه ان نميز فى اغلب الأحيان بين ما يعتقدونه وما يدللون عليه .

واخيراً نقول أن الروح التاريخيــــة والمنهج النقدي أدوات سلام . وهذه نقطة اخرى تساهم بها في مزايا النشاط العلمي ، ذلك النشاط الذي يتضمن كما نعلم مبدأ الوحدة العقلية . فليس هناك علم قومي وإنما هناك علم انساني . وكما ان العلم يحقق الوحدة العقلية في الانسانية فهو كذلك يحققها في الامم المختلفة . وذلك لانــه اذا لم يكن هناك علم الماني وعلم فرنسي بل هناك العلم اطلاقاً ، العـــلم الموحد المشترك بين كافة الامم فكذلك ليس هناك علم حزبي ، علم ملكي او جمهوري ، كاثوليكي أو اشتراكي . وكل الرجال الذين يشتركون في الروح العلمية في الامة الواحدة يؤيدون بعملهم هــذه الوحدة العقلية لوطنهم . وذلك لانه في الخضوع لنظام عقلي واحد ما يربط بين الرجال مهما اختلفت احزابهم او دياناتهم . كما ان التسليم بالنتائج التي يؤدي اليها ذلك النظام خليق بان يهيء من الحقائق المكتسبة مجالا متيناً يتلاقى فيه الرجال الذين يأتون من كل الآفاق. هذا وقبول قواعد المنهج كحكم مطلق في الخصومات من شأنه أن يجردها من مرارتها وأن يضع لها حداً . وهكذا نستطيع بفضله أن نتفاهم وأن نتفق وان نتعاون وذلك دون ان نتخـــلى عن مُثلنا الشخصية ، وفي هذا ما يؤدي الى التقدير والمحبة المتبادلين . إنّ النقد التقريري ، نقد الاهواء والشهوات ، يفرّق ، أما التاريـــخ

الادبي فيجمع كما يفعل العلم الذي يستوحي روحه . وبذلك يصبح وسيلة للتقريب بين المواطنين الذين يباعد بينهم كلّ ما عداه . ولهذا استطيع ان أقول إننا اذا كنا لا نعمل للحقيقة وللانسانية فحسب فأننا نعمل للوطن .

لانسون

استاذ في السربون

علم اللسان

بقلم

انطوان مايه

الاستاذ في الكوليج دي فرانس

اللغة شيء مركب تتصل دراسته بعدة علوم : بعلم الطبيعة لأن اللغة تتكون من أصوات ، وبعلم وظائف الاعضاء لأن تلك الاصوات تولّدها حركات عَضَلية وتدركها الأذن ، وبعلم النفس لان الجمع بين تلك الحركات وإعطاء الاصوات دلالتَها يرجع الى حقائقَ نفسية . إن علم اللسان يستفيد من النتائج التي يصل اليها علم الأصوات وعلم وظائف الاعضاء وعلم النفس ولكنه ليس مجرد جمع للنتائج التي تقدمها تلك العلوم . وموضوعه الاصلي هو دراسة اللغة لا كظاهرةٍ صوتية أو ظاهرة عَضَلية أو حسية تخضع للحركات أو للأدراك الحسي او لفهم الأصوات الصادرة ، ولكن كوسيلة للاتصال بين كائنات تجتمع في جماعات، أعني كظاهرة اجتماعية . إن علم اللسان Linguistique جزء من علم الاجتماع . واللغة البشرية — وهي وحدهاموضع نظرنا هنا — تستند ككل ظاهرة اجتماعية الى سلسلة لا نهاية لها من وقائع الماضي . ومن ثم كان علم اللسان كغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى علماً تاريخياً على نحوٍ ما. وهذا الموقف الذي يقفه علم اللسان في ملتقى علوم مختلفة يملي عليه مناهج خاصة .

الأصوات في اللغة

إذا لاحظنا حديث شخص يتكلم وأخذنا في تحليله أمكننا أن

نواجه الأمر من ناحيتين فاما أن ندرس النطق الصوتي بصرف النظر عن المعنى الذي يحمله الحديث فتكون دراستنا متعلقة بعلم الأصوات العام Phonologie وإما أن ندرس ذلك النطق كوظيفة للمعنى المعبر عنه ، وهنا تدخل دراستنا في باب النحو او المعاجم : Grammaire ou Lexicologie . إن الاصوات لا تهم الباحث في علم اللسان الا من حيث دلالتها على معنى ، ومع ذلك فثمة مجال للنظر في أصوات اللغة كأصوات وبصرف النظر عن قيمة دلالتها. فالجملة التي نسمعها من لغة لا نفهمها تولّد لاول وهلة احساساً بشيء مستمر لا نميز منه أيّ عنصر يمكن فصله، ولكننا عند الفحص ندرك ،حتى دون أن نفهم شيئاً من المعنى المعبر عنه ، ان في كل نطق لغوي سلسلةً من المسافات تفصل بينها عناصر الانتقال . والوحدات المركبة التي تتكون على هذا النحو هي ما يُسمى بالمقاطع ، وتلك اول وحدة صوتية نجحنا في فصلها. وأقدم حروف الهجاء الصوتية كانت مقطعية. وعندما نمعن في الفحص نجد أن المقاطع تتكون من عناصر نلقاها بذاتها في المقاطع المختلفة . خذ لذلك مثلاً قولنا « لقد حمل الاطفال عشاءهم » تجد أن تلك الجملة تتكون من المقاطع لَ ، قَدْ ، حَ ، مَ ، لَلْ ، أطْ ، فا ، لُ ، عَ ، شا ، أ ، هُمْ . (وذلك مع المحافظة على طريقة الكتابة المألوفة في حدود الممكن) وتجد أن المسافات الزمنية تكاد تكون متساوية في قَدْ ، لَلْ ، هُمْ . وكذلك في لَ ، حَ ، مَ . كما تجد أن المقطعين لَ ، لُ . يبتدئان باللام ، والمقطعين أطْ ، أ ، يبتدئان بالهمزة (وهذه العناصر البسيطة هي ما نسميه أصوات اللغة : Phonèmes) وهذه قد ميزت منذ زمن

بعيد . ولقد تناول الاغريق الكتابةَ المعروفة بالفينيقية وأحكموا رسم الحروف (الصائتة) Voyelles وأضافوهـــا الى الحروف الصامتة : Consonnes التي كان الفينيقيون قـد سبقوا الى رسمها مهملين الصائتة . وبذلك كوّن اليونان الرسم الهجائي وعنهم أخذته معظم الشعوب المتحضرة . وكان تحديدُ الاصوات – في الكتابة الفينيقية والاغريقية وفي الكتابات العديدة الـتي أخذت عنها – الاكتشافَ الاساسيّ في علم الاصوات وذلك لان الصوت اللغوي فيما يبدو هو الوحدة الاخيرة في علم الأصوات .

وليس معنى هذا أن الصوت اللغوي شيءٌ موحدمن ناحية السمع أو النطق. فمثلا في الجملة السابقة لو أخذنا اللام الأولى في المقطع لَلْ لوجدناها تتطلب في نطقها ثلاثَ مراحل متواليات اولاها توقف اهتزار الأحبال الصوتية بعد نطق الحرف الصائت في المقطع السابق مَ ثم التصاق أسلة اللسان بالنطع ، وهذه هي المرحلة الاولى ، وارتخاء جانبي مقدم اللسان مع تقوسه الى أسفل واندفاع جانب من الهواء الذى يمر من هذين الجانبين المرتخيين ، وهـذه هي المرحلة الثانية ، وأخيراً انفصال الأسلة عن النطع وفتح مجرى النطق. وهذه الازمنة الثلاثة متميزة بعضها من بعض ومن السهل ادراكها ، إما بملاحظة حركات النطق العضلية ملاحظة مباشرة واما بطريقة ميكانيكية ، وذلك بتسجيل موجات الهواء التي تنتج عن تلك الحركات .

ولكن في حديث الشخص موضـــع ملاحظتنا تتحد الأزمنة الثلاثة اتحاداً لا انفصام له . بل ان هناك حالات لا يمكننا فيها أن نميز بين الصوت البسيط ومجموعة من الاصوات فالحرف الصائت مثلا

الذي يطول نطقنا له لا تستمر طبيعته هي هي . ونحن لا نواجه هنا مسألة الشدة (Intensité) أو الدرجة (Hauteur) التي ليست إلا عناصر ثانوية . وإنما نقصد الى التغير الذي يطرأ على نوع الصوت نفسه (Timbre) فاذا كان هذا التغير ممتداً قلنا بوجود صوت مزدوج Diphtongue ومع ذلك فليس هناك حد فاصل بين الصوت المزدوج (ao) في كلمة « يوم » (عامية) وبين الصوت البسيط « أ » عندما تليه « و » فتوجهه نحو نطقها .

ولتكوين العلم الذي يدرس أصوات اللغة ومجموعات تلك الاصوات ، وهو ما يسمى بعلم الأصوات Phonologie او Phonétique ،لدينا وسيلتان أولاها الملاحظة العادية بواسطة الأذن والثانية التسجيل بالوسائل الميكانيكية . ولقد استطاعت الملاحظة بالاذن وحدها أن تنتهي الى تكوين الكتابة الهجائية التي تحمل في نفسها نظرية صوتية كاملة . ولا بد ان تكون تلك الملاحظة قد أدركت كل ما هو أساسي في اللغة ما دامت اللغات تنتقل بالسماع من جيل الى جيل . والأذن لا ريب قادرة على ادراك كل ما باللغة من عناصر وذلك بصرف النظر عن الكتابة التي تعتبر شيئاً حديثاً بعيداً عن ان يكون عامّ الاستعمال لدى الشعوب كافة ، وهي بعدُ أداة ناقصة تُهمل عدداً لا حصر له من الفروق الدقيقة . وأما التسجيل الميكانيكي فله نوعان : فمن الممكن ان نسجل إما تموجات الهواء التي يولدها النطق واما حركات النطق ذاتها . ولقد استخدمت الطريقتان ومع ذلك لم ينجحا بعدُ في دراسة كل الأصوات على نحوٍ مُرضٍ . ومجموع تلك الوسائل يكوّن ما يسمى بعلم الأصوات التجريبي :

Phonétique experi mentale أو على الاصح علـــم الاصوات الميكانيكي Phonétique instrumentale وذلك لما هو واضح من ان هذا العلم يكتفي بان يسجل حركات النطق والأصوات الصادرة عنها دون ان يخضعها الى تغييرات يمكن أن تسمى تجارب . وهـــذا التسجيل الميكانيكي الذي يستخدم منذ سنوات قليلة يؤدي خدمات عظيمة . فهو يمكننا من أن نتجنب الاخطاء التي تقع فيها الملاحظة المباشرة إما نتيجة لتراخي الانتباه بسبب العادة اذا كنا ندرس لغتنا التي الفناها واما بسبب عدم الألف اذا كنا ندرس لغـة اجنبية . وهو يصل الى درجة من الدقة لا تستطيع الأذن وحدها أن تصل اليها وبخاصة عندما نريد تقدير « كم الاصوات » Quantité ودرجتها Hauteur كما انه الطريقة الوحيـــدة لتحليل الأصوات وردها الى عناصرها رداً يمكننا من تعريفها على نحو يجمع بين الدقة والموضوعية.

وبجمع النتائج التي لدينا عن نطق اللغات المختلفـــة القديمة والحديثة القريبة والبعيـــدة نلاحظ انه اذا كان النطق يختلف عند النظرة الاولى اختلافاً كبيراً فان أصوات اللغات المعروفة كلها تنتظم في عدد محدود من الأنواع ، وهي تتولد بعـــدد من الطرق قليلة الاختلاف من لغة الى لغة . ففي كل اللغـــات هناك حروف صائتة وأخرى صامتة . وفي كل اللغات تكوّن الحروف الصائتة سلسلة يمتد أحد طرفيها من حرف فتحته اكبر ما تكون يشبه الى حد ما الحرف a في اللغة الفرنسية (الفتحة في اللغة العربية) والطرف الآخر ينتهي الى حرف إغلاقه اكبر ما يكون يشبه الى حد ما الحرف i او u او ou في الفرنسية (في العربية الياء في سين والواو في بوق)

وفي كل اللغات تنقسم الحروف الصامتة الى منفجرة Occlusives تتطلب وقفاً تاماً لمرور الهواء الملفوظ، ومتمادة Continues تصطحب بحفيف الهواء في مجرى محصور ينتج عن تضييق أعضاء النطق عند أحد المخارج . ومن بين المنفجرة نميز مثلا السنية بان الاغلاق يحدث بواسطة حافة اللسان الأمامية والحلقية بواسطة حافته الخلفية وهكذا. وأما الاصوات ذات الطبيعة الخاصة كاللام الجانبية (النوع الاكثر انتشاراً هو ذلك الذي ينطق باسناد طرف اللسان الى النطع وبجانبي اللسان أو بارخاء أحد الجانبين) فانها موجودة في كل مكان وفي كافة الازمنة . واذن فهناك علم اصوات عام منهجه التقسيم : والوسائل المستخدمة في ذلك العلم لا تختلف عن تلك التي تستعمل في العلوم الطبيعية والعضوية . وفي الحق ان علم الاصوات اللغوية ليس إلا جزءاً من علم الاصوات الطبيعية ومن علم وظائف الاعضاء التي تستخدم في النطق . إنه مزيج من هذين العلمين مع فارق واحد هو اقتصاره على الاصوات التي لها دلالة .

اللفظة وعامل الصيغة

وأما اذا درسنا النطق اللغوي كوظيفة لمعنى يعبر عنه فان الموقف يتغير وعندئذ لا نلقى قسماً واحداً بل قسمين متميزين . فهناك من ناحية العناصر التي تعبر عن الاشياء وهناك من ناحية أخرى العلاقات التي تقوم بين العناصر المكونة للجملة . وتلك العلاقات يعبر عنها بواسطة الصيغ النحوية مع اعطاء هذا الاصطلاح الاخير أوسع معانيه . واذن فهناك دراسة المفردات أعني المعاجم

تقابلها دراسة الصيغ اي النحو . ولتعيين كل ما يعتبر صيغة نحوية – وذلك بصرف النظر عن العناصر التي تميز المعنى الحقيقي لهـــذا الاصطلاح – اقتُرِحَ استعمال كلمة « عامل الصيغة » Morphème وثمة فائدة في استعمال هذه الكلمة هي انهـا لا توحي بالمعنى المجسم الضيق الذي علق بالاصطلاح « الصيغة النحوية » .

واللفظة المفردة وعامل الصيغة ليسا دائماً منفصلين في الكلام . ففي بعض اللغات الـتي تسمّى لغات إعراب Langues flexionnelles نجد اللفظة وعامل الصيغة متحدين اتحاداً وثيقاً بحيث يكونان كلاً لا يتجزأ الا بالتحليل . فمثلاً في قولنـا باللاتينية : Mors Patris (وبالعربية موت الأب) او قولنا : mors fabri (موت الحداد) نجد في patris « الاب » وفي fabri « الحداد » عناصر تـدل على معنى الاب ومعنى الحداد ومعها عناصر أخرى تدل على علاقة التبعية القائمة بين « الاب » و« الحداد » وبين « الموت » . وهيئة عامـل الصيغة تتوقف على اللفظة المفردة الى حـــد ما ففي المثل اللاتيني السابق نجد أن هذا العامل ليس واحداً في : fabri patris (وفي اللغة العربية نجد أن الجر يكون أحياناً بالكسرة وأحياناً بالفتحة او غيرها) ومع ذلك فأنه رغم هذا التداخل الوثيق بـــين اللفظة المفردة وعامل الصيغة ورغم توقف أحدهما على الآخر يجب أن نفصل في الدراسة بين هذين النوعين من الموضوعات .

وثمة خاصية مشتركة بين اللفظة وعامل الصيغة هي أنـــه ليس لوحدة كل منهما حتماً حدٌّ صوتي فالجملة التي تحتوي على عـدة ألفاظ وعدة عوامل تترك عند السامع الذي لا يفهمها أثر النطق المستمر ،

ومن ثم نرى اولئك النفر من علماء اللسان الذين هم قبل كل شيء علماء أصوات نرى أنهم ينكرون غالباً حقيقة اللفظة المفردة وهم الى حد ما مصيبون من وجهة النظر الصوتية . ولكنّ علم الاصوات ليس كل شي في علم اللسان . واللفظة المفردة وعامل الصيغة كلاهما حقائق من حيث أنهما يعبران بالاصوات على نحو مستقل الاولى عن معنى والثاني عن وظيفة نحوية . اللفظة حقيقة بلغت من الثبات ان نرى الطفل الذي يتعلم الكلام يبتدىء او يلوح أنه يبتدىء بألفاظ مفردة منفصلة . وكل الناس يعرفون أنه لكي نتمثل لغة أجنبية يجب أن نصل الى أن نعزل في الجمل التي نسمعها اسم كل شيء .

وتعرّف الكلمة بالعلاقة بين معنى ومجموعة من الظواهر وذلك مع اعتبارنا للتغييرات التي يمكن ان تنتج عن الصيغ النحوية المختلفة .

واختلاف الصيغة النحوية يعقد التعريف دون أن يسلبه شيئاً من دقته فكلمة حصان لا يمكن ان تعرّف ما لم نعلم أنها في بعض الأحوال تأخذ الصيغة أحصنة ، وكلمة جميل كذلك ما لم نعرف الصيغ جميلة وجميلان وجميلون وجميلات ، وكلمة راح ما لم نلاحظ التغييرات التي تطرأ عليها في قولنا يروح ورُح الخ ... وكذلك الأمر في اللغة اللاتينية فليست هناك كلمة pater (أب) وكلمة faber (حداد) وإنما هناك من ناحية المجموعة pater و patris و patre الخ (الأبُ الأبِ الخ ...) ومن الناحية الاخرى fabro faber fabri الخ ... (حدادٌ حدادٍ الخ .....)

وفي لغة البانتو: Bantou ليست هناك كلمة: muntu (الرجل)

بل مجموعة مونتو « رجل » وبنتو : buntu « رجال » وهكذا في عدد كبير من الحالات. وانه لمن الصعب أن نحدد هذه الوجوه في كل حالة وان يكن مؤلفو المعاجم على خطأ في عدم قيامهم بذلك دائماً على نحو كامل .

معاجمنا بعيدة عن الكمال

والجزء الآخر من تعريف اللفظة أعني ذلك الذي يتعلق بالمعنى جزء شاق . ولقد سخر الناس كثيراً من تعريفات معجم الاكاديمية وهي غالباً تعريفات رديئة. ولكن من المستحيل أن نضع تعريفات جيدة وبخاصة فيا يتعلق بالالفاظ العامة في اللغة الدارجة . فالمعنى العامي اللصيق بكل من تلك الكلمات في العادة غامض ، وهو على أي حال لا يحمل تعريفاً دقيقاً بل يأبى ذلك التعريف . وانما الاصطلاحات الفنية هي التي تقبل التعاريف الدقيقة ولكن لا قيمة لها إلا عند ارباب المهنة وهي عادة تخلو من كل معنى بالنسبة للافراد العاديين الذين يسمعونها ، فان كان لها معنى عندهم جاء معنى غامضاً . والشيء الاساسي في اللغة هو الالفاظ الدارجة التي لها قيمة تكاد تكون واحدة عند مجموعة الافراد الذين يتكلمون لغة ما ، ومن ثم فمؤلف المعجم الذي يحل تعريفات علمية محل التعريفات الغامضة التي تُعطى عادة للكلمات غير الفنية المستعملة يرتكب شرّ الاخطاء إذ يعطي تلك الكلمات قيمة لا تصدق إلا عند بعض الاخصائيين . والذي يهم الباحث في علم اللسان ليس الحقيقة الموضوعية التي تلحق بالاسم بل الفكرة الدارجة عن تلك الحقيقة . ومن الواجب ان

نضيف أن ما يحدث عادة عنـــدما ننطق أو نسمع كلمة ما هو أن الخيـال لا يدرك المعنى اللصيق بها وأننا نكتفي بالذكرى الغامضة التي تثيرها تلك الكلمة. واللفظة بعد لا تحمل معنى عقلياً فحسب بل تحمل أيضاً في الغالب لونا من الاحساس : فكلمة (Jardinet)[1] (جنينة) ليست فقط حديقة صغيرة ولكنها حديقة صغيرة لهـا في النفس حنوّ .وكلمة : château (قصر) ليست فقط منزلا واسعاً بل يضاف الى ذلك احساس اعجاب نشعر بـــه نحو مقر الأمراء . وللفظة كذلك قيمة اجتماعية فعند بعض الطبقات التي تتكلم الفرنسية لا تستعمل لفظة : Gueule (بُوز) إلا عند الكلام على الحيوانات ولا تقال عن كل الحيوانات[2] بينما تستعملها طبقات أخرى باستمرار في الكلام عن الانسان . واخيراً إن اللفظة من اللغـة الدارجة لا تعرف إلا بالنسبة لمجموعة الجمل التي تسمع فيها والتي من الممكن ان تستخدم فيها . ومن ثم فالمعجم لا يمكن ان ينزع الى الدقة ما لم يحتو على امثلة كثيرة . وكلما ازدادت تلك الأمثلة عـدداً وتنوعاً ازداد المعجم قربا من الحقيقة. والرسم والكتابة الموسيقية والاحالة على شيء يعرفه القارىء يعرّف الالفاظ غالبـــاً خيراً مما تعرّفها التفسيرات اللفظية الطويلة . واما فيما يختص بالاصطلاحات الفنية فالمشكلة بسيطة اذ تتعلق المسألة عادة باشياء أو أعمـــال تحمل أو تتطلب تصويراً تخطيطياً او عـــلى الاقل تقبل تعريفات دقيقة . والمعاجم في هذه الناحية ناقصة نقصاً مبيناً ، ولكن من الممكن

---

(١) قارن ذلك بتصغير التمليح في اللغة العربية .

(٢) يقال بنوع خاص عن الكلاب .

تكميلها بالرجوع الى القواميس الخاصـــة « Lexiques » أو الموسوعات الفنية .

ولقد فطنا منـــذ بضع سنين الى ما يجب أن يتوفر في دراسة جيدة للألفاظ ، ولكن المعاجم الموجودة – حتى احدثها وخيرها – لا تحقق إلا جزءاً يسيراً مما يجب أن يكون . وفي الحق ان الصعوبة شاسعة ، وذلك لان اللغة تلابس الواقع كله بواسطة الالفاظ بحيث ان دراسة المفردات دراسة كاملة تكون بمثابة دراسة انعكاس الواقع كله في نفوس الافراد المختلفـــين الذين يستعملون تلك المفردات ويكوّنون منها لغتهم . وهذا عمل لا يعرف حدوداً .

الالفاظ منفصلة بعضها عن بعض وذلك بحكم اتصالهـــا بمظاهر الواقع المحسوس التي لا حصر لها . والمجموعات الاشتقاقية[1] للالفاظ محصورة في قليل من المفردات بل اننا لنجد في داخل كل مجموعة ان لكل لفظ منها تقريباً استقلاله . فكلمة Chantable (يصلح للغناء) لم توجد إلا بفضل وجود الفعل Chanter (يغني) ولكن كلمة : Chanteur (مغنٍّ) قـد تم استقلالها عن الفعل Chanter وكلمتا Chantre (مغنٍّ في الكنيسة – وعلى سبيل المجاز شاعر يغني أو طير يغرد) و Chanson (اغنية) لم نعد نحس تقريباً بانهما يكونان جزءاً من مجموعة : Chanter[2] .

---

(1) Familles de mots

(٢) قارن في اللغة العربية الفعل « قضى » واشتقاقاته المختلفة تجـد ان العلاقة بين « قاضي » و « القضاء » والقـدر » وقضينا في الكتاب » لم نعد نحس .

واما عن الالفاظ التي تعبر عن معان يجاور بعضها البعض فانه من المهم ان نحدد قيمة كل منها أي أن نضع عـــلى نحو ما معاجم للافكار في كل لغـــة . ولكن جمع تلك الالفاظ بعضها الى جانب بعض هو في اغلب الأحيان خارج عن دراسة اللغة مستقل عن طرق الاداء فيها . ومن ثم فهو تحكمي ، ثم انه لا يحتمل غير تحديدات تقريبية . ومن ثم فالالفاظ لا تقبل أي تقسيم عقلي صرف . ودراسة المعجم تشمل عدداً من الأدوات المستقلة مساوياً لعـــدد الالفاظ والنظام الوحيد الذي يمكن ان نوزعها تبعاً له هو ذلك الذي يمكننا من العثور على الاشياء : نظام « فيشات المكاتب » وهذا ما يُعبّر عنه ترتيبُ المعاجم ترتيباً هجائياً .

ولكن اللغة البشرية العادية تقف عند استعمال الالفاظ المفردة اذ تنتظم تلك الالفاظ مجموعات تختلف تبعاً للمعنى الذي نريد العبارة عنه وهي ما نسميه بالجمل والكثير من الحيوانات الثديية والطيور قادرة ان تفوه بعدد من الاصوات تفهمها الحيوانات التي من جنسها وتثير عندها حركات محددة وتلك الحيوانات ذاتها تفهم أيضاً أحيانا كثيرة ما يوجهه الانسان اليها من اصوات وتطيع . وانه لمن الممكن ان نقود حصانا دون أن نستخدم تقريباً أي شيء آخر سوى الصوت . ولكن كل كلمة – وذلك لأننا ازاء كلمات حقيقية – كل كلمة يفهمها الحيوان منفردة حتى ولو نطقناها في جملة . واما جمع الكلمات في جمل فتلك خاصية الانسان ، ومن الواجب أن تؤلف تلك الجمل تبعاً لطرق تحددها طبيعة كل لغـــة وتلك الطرق هي ما سميناه سابقاً بعوامل الصيغة .

علم الصيغ وعلم النظم

وعوامل الصيغة يمكن ان تكون إما صوتا خاصاً وإما نظماً محدداً للكلمات . وهاتان الوسيلتان مختلفتان من ناحية الشكل . ونحن نسمي دراسة النوع الاول بعلم الصيغ Morphologie والنوع الثاني بعـــلم النظم (التراكيب) : Syntaxe ولكنهما في النهاية يؤديان نفس الخدمات. ومن ثم كان هناك مجال لجمعها في باب واحد من علم اللسان هو باب النحو Grammaire وبتعبير أدق علم الصيغ. خذ لذلك مثلاً الجمل الفرنسية .

(بيير ُ يضرب بولَ) Pierre frappe Paul (بول يضرب ُ بيير َ) Paul frappe Pierre والجمل اللاتينيـــة المقابلة Petrus Paulum Caedit (بطرس ُ بولسَ يضرب) أو اذا اردت Paulum Petrus Caedit بولسَ بطرس ُ يضربه ، أو : Paulum Caedit Petrus بولسَ يضربه بطرس ُ ، أو : Petrus Caedit Paulnm بطرس ُ يضرب بولسَ و Paulus Petrum Caedit بولس ُ بطرسَ يضرب (مع الحرية في ترتيب الالفاظ على نفس النحو الذي رأيناه في الحالة السابقة) فالفرق بين الفاعل والمفعول الذي ندل عليه في الفرنسية بالترتيب الخاص بكل من الالفاظ الثلاث في الجملة يعبر عنه في اللاتينية بالاختلاف في تغيير اواخر الكلمات من s الى n في الكلمتين Petrus و Petrum ثم Paulus و Paulum (في اللغة العربية بتغيير الاعراب من رفع الى نصب) وانه لمن الممكن ان تجتمع الوسيلتان . فالالماني عادة يقول: Lowe Sicht den Hassen

(الاسد يرى الارنب الـــبري) der Hasse sicht den Lowen
(الارنب البري يرى الاسد) مع ترتيب الالفاظ ترتيباً ثابتاً تقريباً مضافاً الى علامة صوتية تميّز الفاعل من المفعول . وليس ثمة وسائل يملكها علم الصيغ غير الوسيلتين اللتين ذكرناهما .

والتعبير بصوت خاص يمكن ان يتخذ صيغاً كثـــيرة التفرع فأحياناً يتكوّن من عنصر صوتي له بعض الطول وبعض الاستقلال بحيث يمكن ان نعتبره كلمة متميزة اذا كان له معنى متميّز . وذلك مثل de في قولنا بالفرنسية : le livre de Pierre « كتاب بيير » (وهنا نرى ترتيب الالفاظ المحدد يعزّز مدلول عامل الصيغـــة de ذلك العامل الذي تسمّيه كتب النحو الفرنسية تسمية غير موفقـة بحرف الجر : Préposition) واحياناً اخرى يكون عبارة عن تغيير داخلي في الكلمة كما هو الحال في قولنا باللاتينيـة : liber Pétri « كتاب بطرس » وذلك التغيير يتناول بوجه خاص اول الكلمة أو آخرها وان لم يكن مقصوراً على هذين الموضعين إذ نراه احيانـاً كثيرة يدخل في حشو الكلمة . فكلمة « أب » لها في اللغة الالمانية صيغتان اولاهما Vater للعبارة عن المفرد والاخرى : Väter للعبارة عن الجمع . ومعنى هذا هو أن عامل الصيغة يتكوّن من تغيير في نوع الحرف الصائت في المقطـــع الاول الذي هو « a » في المفرد و « e » (التي تكتب ä) في الجمع . وعامل الصيغة الذي يتكوّن من عنصر صوتي يمكن ان يكوّن كلاً واحداً مع الكلمة التي يدخل عليها فيكون هذا إعرابــاً « flexion » كما يمكن ان يلحق مجرد إلحاق باللفظة دون ان يتحد معها اتحاداً وثيقاً ، ويكون هـــذا

إلصاقاً agglutination . والفارق بين النوعين هروب وهو بعد أمر نسبي .

واذن فعندما نميز بين علم الصيغ وعلم النظم جاعلين موضوع احدهما صيغ الالفاظ وموضوع الآخر بنـاء الجمل يكون تمييزنا مصطنعاً لا يمكن أن نتابعه في التفاصيل . ولكم من مرة يميزون بين علم الصيغ morphologie باعتباره العلم الذي يدرس بناء الصيغ النحوية وعلم النظم : syntaxe باعتباره ذلك الذي يتناول وظيفة تلك الصيغ . وهذا تمييز أحمق . ثم ان ما يعتبر في لغة ما داخلا في علم الصيغ كثيراً ما يكون في لغة اخرى من موضوعات علم النظم ومن ذلك ان وظيفـة الاعراب في اللغة اللاتينية عند قولنـا Paulus caedit Petrum هي نفس الوظيفة التي يؤديها ترتيب الكلمات في اللغة الفرنسية عند قولنا : Paul frappe Pierre .

وعوامل الصيغة ، عندما تكون قواعد لموضع الكلمات المختلفة لا تستخدم كما نتوقع إلا في بناء الجملة . ولكن العوامل التي تتميز بأصوات فيعطيها استقلالها الصوتي قيمة ذاتية يمكن ان يكون لها علاوة على وظيفتها في بناء الجملة معنى محسوس . وللالفاظ غالبـاً صيغ مختلفة حسبا تدل عليه من شيء مفرد أو أشياء متعددة . فالاعداد مثلاً تكون مقولة نحوية نجد آثارها في عدد جم من اللغات . وكثيراً ما يكون للالفاظ التي تعبر عن الحدث صيغ مختلفة حسبما يكون الحدث حاضراً أو يكون ماضياً تاماً أو غـير تام ، حتى ليسمي الألمان الفعل Zeitwort أي الكلمة التي تدل على الزمن . وليس من بين تلك المقولات المحسوسة catégories concrètes ما هو

عالمي تماماً . فاحدى المقولات التي تحتل مكاناً أساسياً في لغة ما نكاد لا نجد لها وجوداً في لغة أخرى او لا نجد لها إلا وجوداً محدوداً. وفي لغة كاللغة الصينية نجد أن كل المقولات ذات القيمة المحسوسة مجهولة تقريباً . ومع ذلك ضلحت تلك اللغة لان تستخدم كأداة لحضارة كبيرة . ولزمن طويل كانت احدى غلطات النحويين الكبيرة هي محاولة العثور في كل اللغات على نفس المقولات او ما يقابلها . ولقد دلت التجربة في هذا الصدد على أن التفاوت كبير.

ومع ذلك فانه رغم اختلاف المقولات النحوية اختلافاً شديداً نجد أنه من الممكن ان نجمعها في أقسام تشبه تلك التي تجتمع فيها الأصوات المختلفة . وبذلك يصبح تقسيم الجمل الى أنواع هو الآخر ممكناً . بل لقد ابتدأنا نلمح كيف اننا عندما نجد في لغة ما طريقة ما من طرق الأداء نتوقع ان يتبعها حتما غيرها من نوعها . فمثلا عندما تستخدم لغة ما عوامل صيغة مستقلة توضع في آخر الكلمة او في اولها ، نجد في تلك اللغة ذاتها اتجاهاً نحو وضع الالفاظ التي تتعلق بتلك الصيغ على نفس النحو أي قبلها أو بعدها .

ووجود اعراب غنيّ بالحالات بحيث يكفي للعبارة عما هو ضروري لبناء الجملة يعفي من الاعتماد على قواعد الترتيب . وعلى العكس من ذلك يجب ان تكون هناك قواعد دقيقة لترتيب الكلمات عندما لا يوجد أي عنصر من عناصر الاعراب ، كما هو الحال في اللغة الصينية ، او عندما لا يوجد إلا عدد محدود ، كما هو الحال في الفرنسية . فانه وان تكن قواعد الترتيب ليست واحدة في كل اللغات إلا اننا نلاحظ انها تخضع لاتجاهات مسيطرة تتشابه في اللغات

المختلفة . وبالاختصار فانه توجد مبادىء لعلم الصيغ العام الذي لم يوضع بعد والذي لم نعدُ أن لمحنــا خطوطه العامة وان كان من الممكن أن يتكوّن .

بقي أن نحدد كيف نستطيع في مجموعة من الالفاظ اللغوية من لغة واحدة أن نصل الى الفصل بين الألفاظ المفردة من جهــة وبين عوامل الصيغة من الجهة الاخرى . وذلك طبعــاً بفرض ان تلك اللغة معروفةٌ منا مفهومة لنا . وللوصول الى ذلك نلاحظ العناصر التي يمكن ان يحل بعضها محل بعض في الجمل المتشابهة البناء. خذلذلك جملاً معروفة المعنى مثل « لقد بعت حصاناً « J'ai vendu un cheval » لقد بعت حمــاراً » J'ai vendu un âne . « لقد بعت ثوراً » J'ai vendu un boeuf . الخ . . « لقد شرب الحصان » Le cheval a bu « لقد شرب الحمار » L'âne a bu . « لقد شرب الثور » Le boeuf a bu . الخ . . « لقد بعت احصنة » J'ai vendu des chevaux . « لقد بعت حميراً » J'ai vendu des ânes . « لقد بعت ثيرانا » J'ai vendu des boeufs . الخ . . . « لقد شَرِبَتِ الاحصنةُ » Les chevaux ont bu. « لقدشربت الحمير » Les ânes ont bu. « لقد شربت الثيران » Les boeufs ont bu . الخ ... نجد اننا قــد عبرنا عن الكائنات المقصودة في هذه الجمل على التناوب بـ cheval , chevaux . حصان وأحصنة (نطقها واحد وان زادت s في الجمع كتابة لا نطقا) âne , ânes حمار وحمير boeuf , boeufs ثور وثيران (الـ f ناطقة في المفرد اما في الجمع فـ fs صامتة) وأما الاجزاء الاخرى من الجملة فقد ظلت كما هي . ان لدينــا هنا اسماء الحيوانات . ونحن نلاحظ ان

اسمين من اسمائها قد اخذا صيغة خاصـة تبعا لتعبيرها عن مفرد او جمع . وعلى هذا النحو حددنا ثلاثة الفاظ كما حـــددنا صيغاً نحوية وبمقارنة هاتين السلسلتين من الجمل يسهل ان نلاحظ ان اسم الشيء الذي يقع عليه الحدث يوضع في الفرنسية بعد الكلمة ألتي تدل على ذلك الحدث . وبالعكس نجد ان اسم فاعل الحدث يوضع قبـــل الكلمة التي تدل عـــلى ذلك الحدث وتلك احدى قواعـــد الترتيب الاساسية في اللغـــة الفرنسية . ولـكي نحدد الكلمات التي تدل على الحدث يكفي ان نغير من صيغهـــا هي الأخرى ، نقول مثلا : Tu vendras un cheval » ستبيع حصانـــاً « Vends un « كانوا يبيعون حصاناً » Ils vendaient un cheval . cheval » بع حصاناً » الخ ... وبذلك نحدد كلمة متعددة الصيغ J'ai vendu . « كنت ابيع » Je vendais . « أبيع » Je vends « لقـد بعت » . Vendre « ان يبيع » الخ . . ولـكي نجد عوامل الصيغة نغير من الكلمات ... فنحصل على :Il vendait un cheval « كان يبيع حصاناً » و Le cheval buvait « كان الحصان يشرب » . Il aimait cela « كان يحب هذا » ، وبذلك نحصل على عامل الصيغة ait » الذي تتحدد قيمته ووظيفته بملاحظة العوامل الاخرى التي تحل محله . وعندما يكون الامر متعلقاً بلغة لم يوضع نحوها بعد ولا احصيت مفرداتها تبدو هذه الطريقة – مهما بسطناها – بطيئة مضنية . ولكننا في الحق لا نملك غيرها . وذلك لانه من الواضح اننـــا لن نحصل على شيء بأن نسأل مباشرة الشخص الذي يتكلم اللغة : والنحو والمفردات لا يستخرجان إلا من الجمل المركبة . والجمـــلة

وحدها هي الحقيقة المحسوسة التي ينصرف اليها جهد الباحث في علم اللسان . ولكنها حقيقة عابرة اذ أنها بحكم طبيعتها لا تتكرر على نفس النسق . والصوت والكلمة وعامل الصيغة هي التي تكوّن انواعاً محددة وذلك لانها تتردد في صورة شبه ثابتة في عدد من الجمل لا حد له .

ونلخص ما مضى في أن التحليل اللغوي ينتهي بنا الى التمييز بين ثلاثة أنواع من العناصر: الأصوات وتلك عناصر علم الأصوات، والمفردات وتلك عناصر المعاجم ، وعوامل الصيغة وتلك عناصر النحو بمعناه الدقيق .

ولكل من هذه الانواع الثلاثة في علم اللغات وسائله كما ان لكل منها موضوعه . وإنه لوضع شاذ يتميز به علم اللسان إذ نراه يعمل باستمرار في عناصر ثلاثة مختلفة . ومع ذلك فهي شديدة الاتصال بعضها ببعض حتى ليمكنُ اعتبارُها دراسةً لشيء واحد من جهات ثلاث ، وذلك الشيء هو اللفظ الصوتي مستعملاً في الحديث . ومع ذلك فان صعوبات المنهج اللغوي لا تنتهي عند تعرفنا على هذه الانواع الثلاثة التي هي الوحدات الأساسية فى اللغة ونعني بها الصوت واللفظة المفردة وعامل الصيغة .

— ٣ —

ومن واجب الباحث في علم اللسان أن يواجه —علاوة على العناصر التي تكوّن اللغة البشرية — نوعاً آخر من الوحدات ونعني به اللغات المختلفة التي تعتبر بالنسبة اليه موضوعات متميزة للدرس . وهنا تظهر الطبيعة الاجتماعية لحقائق اللغة .

في وسط اجتماعي متجانس السكان نجد عادة ان للغة شيئاً من الوحدة . بل انه لشرط أساسي لوجود اللغة أن يحرص من يتكلمونها على استخدام نفس الوسائل للتعبير . وهذا ما يدركه أفراد كل جماعة محددة . فالخروج عن جادّة اللغة يثير من يسمعونها ويعرّض الخارج الى السخرية على الاقل . واذن فهناك بالنسبة لكل جماعة جادةٌ لغوية محددة يحميها المجموع بردّ فعله، هذه الجادة هو ما يمكن أن نسمّيه لغة . وعالم اللغة لا بد له من أن يحدد ما تتكون منه تلك الجادة ليرى الى اي حد يقترب منها من يتكلمها والى أي مدى يمتد سلطان كل لغة .

اللغوة المحلية

وحدة اللغة تحكمها وحدة الجماعة . وكل جماعة موحدة متجانسة تسعى لأن يكون لها ايضاً لغة موحدة متجانسة . وكل قسم في تلك الجماعة ينزع الى أن تكون له لغة خاصة في حدود ما يتمتع به من استقلال . وهذا المبدأ مع ذلك لا يسجل إلا الممكنات ولكنه لا يسمح بتوقع ما يحدث في كل حالة خاصة :

لقد أظهرت التجربة أنه كلما وجدت مجموعات محلية اتجه أفرادها الى أن تكون لهم لغوات متميّزة . والرجال المتجاورون هم بحكم الطبيعة أولئك الذين يتكلمون على نحو واحد ، واذن « فاللغوة الاقليمية » تكوّن وحدة أولية لا بد للباحث في علم اللسان من النظر فيها .

ولكن هذه الظاهرة ليست مطلقة فالاختلاف في عناصر السكان

قد يؤدي الى اختلاف في لغتهم ولو كانوا يسكنون مكاناً واحداً . وهذا ما يحدث بوجه خاص في تلك الامكنة التي يتجاور فيهـا جنسان مختلفـان دون ان يمتزجا ، كاليهود والبولونيين في بولونيا وكالاجناس المختلفة في بلاد المشرق والقوقاز . وانه لمن الممكن أن نجد في مكان واحد من بلاد الامبراطورية العثمانية القديمة مسلمين يتكلمون اللغة التركية واغريقاً يتكلمون الاغريقية وارمن يتكلمون الارمنية ويهوداً يتكلمون لغة يهودية اسبانية ، وكل ذلك دون ان نتكلم عن الجاليات الاجنبية التي تستخدم لغاتها القومية . وفي الجزائر او في تلمسان نجد أن العربية التي يتكلمها اليهود ليست بعينها تلك التي يتكلمها المسلمون . وانه لمن الممكن أن يولد التفاوت الاجتماعي بين الطبقات آثاراً مشابهة لما ذكرنا رغم تجانس الوسط الى حد ما . ففي احدى الجهات الفرنسية مثلاً تختلف اللغة حسبما يكون من يستعملها من طبقة البورجوازية الغنية التي تملك ثقافة عالية وتتكلم في كل مكان اللغة الفرنسيه العامة وان تكن هناك عادة خصائص اقليمية وبخاصة في النطق ومفردات اللغة ، او يكون من الريفيين — فلاحين وعمالا — الذين يتكلمون الى حد بعيد لغوتهم المحليـة (Patois Local) . ولكل مهنة اوحرفة خصائصها اللغوية ونحن نعلم لغات المهن والمدارس المختلفة واللصوص الخ ... وتلك اللغات الجزئية لا تختلف عادة عن لغة الاقليم العامة الا في مفرداتها . وأما النطق والصيغ النحوية فلا تتميز بخصائص ذاتية . وأخيراً هنـاك لغات خاصة ببعض الوظائف . فالرجل الذي يؤدي الطقوس الدينية والذي انضم الى طائفة رجال الدين لا يمكن ان يتحدث باللغـة

العادية . ومن ثم وجدت اللغات الدينية . وعند المتمدينين المحدثين حيث لم يعد للدين وظيفة خاصة ولا محل متميز في الحياة الجارية ، لم تعد للغات الدينية الا أهمية ثانوية. وأما عند الشعوب البدائية الحضارة حيث يتدخل الدين في حياتهم في كل حين فان لتلك اللغة مكاناً كبيراً .

وعبارة لغوة محلية اذن في حاجة الى ان تحدد بذكر الجماعة التي تتكلمها . ففي اوروبا الغربية يطلق هذا اللفظ على طبقـــات من السكان فقيرة الى حد ما ضعيفة الحظ من الثقافة. وبمجرد ان يبتدىء السكان في الاثراء وفي التثقف يأخذون غالباً في هجر لغوتهم المحلية. وتبدأ لغات عامة في التكون والانتشار في اقاليم واسعة . وتلك هي اللغات الانجليزية والالمانية والفرنسية مثلاً .

وحتى في اللغة الأكثر شيوعاً وأكثر توحيداً وبعداً عن اختلاف الاجناس وعن اللغات الخاصة نجد نوعاً من التفاوت لا يمكن اهماله. وهو ذلك الذي ينشأ عن اختلاف السن بين الافراد الذين يتكلمون تلك اللغة . ولسنا نعني بذلك الخصائص ، التي تتميز بها لغة الاطفال عندما لا يكون تعلمهم للكلام قد انتهى، أو لغة الشيوخ الذين تتغير بحكم السن اعضاءُ النطق عندهم . لسنا نعني شيئاً من هذا وإنما نشير الى ان كل جيل يأتي بتجديدات وان الاشخاص العاديين عنـــدما تتفاوت اسنانهم يتبع ذلك تفاوت ملحوظ في لغتهم .

اللهجة واللغة العامة

وفي مقابلة اللغوة المحلية ، نجد نوعين من الوحـــدات الأكثر

انتشاراً هما اللهجة واللغة العامة dialecte et langue commune .

ومعنى اللهجة دقيق مختلف فيه . ونحن لا نريد أن ندخل هنا في تفاصيل المناقشة ولكننا نكتفي بتقرير المبدأ العام . فسكان الاقليم الواحد الذين يتكلمون عدة لغوات ومع ذلك يتفاهمون فيما بينهم يمكن ان يقال أنهم يتكلمون لغة واحدة. ومن الممكن ان نتوسع في هذه الفكرة فنقول ان الرجل من «نورمانديا» والرجل من «الفرنش كونتيه» لايفهم كل منهما لغوة الاخر. ولكننا عندما نجوب الاماكن التي تقع بين نورمانديا والفرانش كونتيه نجد سلسلة مستمرة من اللغوات يفهم اصحاب كل منها جيرانهم المباشرين وليس ثمة نقطة يمكن ان نتخذها حداً فاصلاً وكذلك الرجل من برن Berne والرجل من سيلتزيا لا يتفاهمان ولكننا نمرّ من لغوات برن إلى لغوات سيليزيا بسلسلة من الانتقالات. وهذه الانتقالات قد تكون غير محسوسة في الاقاليم الواسعة ، وعلى العكس من ذلك قد تكون فجائية إلى حد ما . وكلما كانت الفروق بين تلك اللغوات عديدة وكانت في بقعة محدودة كنا إزاء حد من حدود اللهجات . ولكن حدود الخصائص المختلفة التي تتميز بها اللغوات بعضها عن بعض لا تقع مع حدود تلك اللغوات عادة ولهذا فالحد بين لهجتين لا يقيمه خط بل شريط من الارض يتفاوت ضيقاً وسعة . وفي مثل هذه الحالات تعتبر كل تلك اللغوات المختلفة أجزاء من لغة واحدة كالفرنسية والالمانية وان لم يكن من الضروري ان يفهم كل الاشخاص الذين يتكلمونها بعضهم بعضا . فاللغة بهذا المعنى الواسع تضم وحدات لها خصائص يميزها من يتكلمونها . وهذه الوحدات

هي ما يسمّى باللهجات . وبديهي ان وجود هـذه الوحدات يفسر بوجود علاقات مطردة بين الرجال الذين يستخدمون اللغوات التي تجتمع في كل وحدة من تلـــك الوحدات . ففكرة اللهجة فكرة غامضة كما نري بينما فكرة اللغوة محددة الى حد ما وذلك بتحديد المجموعة الاجتماعية التي تستخدمها واقصاء كل ما هو دخيل على تلك المجموعة .

وفكرة اللغة العامة ليست أقل تحديداً من ذلك . فكل اقليم كبير يتعهد سكانه -- فيما بينهم -- علاقات عديدة مضطردة ويعتبرون أنهم يكونون مجموعة متحدة ، كل اقليم كهذا ينزع الى ان تكون له لغة موحدة حتى ولو تفاوتت لغواته تفاوتاً كبيراً . وعلى هـذا النحو تتكون لغة عامة هي في الغالب اللغة الرسمية للمجموعة وهي التي تستخدم في مظاهر الحياة الجماعية وفي العـــلاقات بين البلدان المختلفة . وليس للغة عامة كهذه من الوحدة ما للغة المحلية . وذلك لان الاسباب التي تولد التفاوت في اللغوات نراها وقد تضخمت في اللغات العامة ، وبخاصة اذا ذكرنا انه في داخل كل مجموعـة تتكلم لغة عامة نجد مجموعات صغيرة لكل منها خصائصها اللغوية .

ففي المدن الاوروبية نجد فروقاً محسوسة وأحياناً فروقاً قوية تبعاً للمراكز الاجتماعية وللمهن وللمجموعات العارضة (مدارس ، معسكرات ...الخ) . وموقف الافراد يمكن ان يتعقّد. فالشخص الواحد قد يضطر الى ان يتكلم على نحو يختلف باختلاف من يوجه اليه الحديث . ثم ان اللغة العامـــة بحكم تعريفها ذاته تمتد الى اقليم واسع توجد فيه عادة او قد وجدت في المـــاضي لغوات متميزة .

وبعض من عناصر تلك اللغوات يؤثر في اللغة العامة بحيث تأخذ تلك اللغة في كل مكان لونا خاصاً . فاللغة الفرنسية العامة ليست واحدة في المقاطعات الفرنسية المختلفة . واللغة الانكليزية ليست هي هي في لندن وايدنبره ، في نيويورك وملبورن . ولقد يحدث ان تحتفظ بطرق النطق المحلية ، او على الاقل الاقليمية ، احتفاظاً شبه تام مع استعمال مفردات واحدة وقواعد نحوية واحـــدة . ولا تزال اللغة الالمانية العامة حتى اليوم تُنطق نطقاً متبايناً تبعاً للاقاليم التي تُستخدم فيها . ولـكي نكتب لغة عامة على نحو دقيق يجب ان نحدد النقط التي يوجد فيهـــا تفاوت مشروع . وتحديد الاباحات المقبولة يكوّن او يجب ان يكوّن جزءا من وصفنا للغة .

بين اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة

وكل اللغات العامة التي يستطيع الباحث في علـــم اللسان ان يلاحظها لغاتٌ لها صيغة مكتوبة . ومعظم الاختلافات في النطق التي تتميز بها الجهات المختلفة والطبقات الاجتماعية المتباينـة لا تظهر في الكتابة . فالحرف a في اللغة الفرنسية ينطق بطرق مختلفة تبعاً للاشخاص الذين ينطقونه . واذن فلهذا الرسم قيمة نوعية ولكنه لا يعبر عن المفارقات .

وفي اللغة المكتوبة تميل الاختلافات الى الاختفاء مع أن تلك اللغة هي التي تحمل الصيغة العامة على أتم وجه . انّ اللغة المكتوبة الثابتة بطبيعتها تؤدي الى تثبيت اللغة العـامة وتعمل فيها كعنصر محافظة .

واللغة المكتوبة تتميز عن اللغة المنطوقة بعدد من الخصائص وذلك طبعاً بصرف النظر عن الخصائص المحلية والاقليمية التي تهملها الكتابة ، إما لعدم دقتها أو قصداً الى ذلك الاهمال . وخصائص اللغة المكتوبة التي نشير اليها هي المحافظة على الاستعمالات القديمة والتخلف عن مجاراة اللغة المنطوقة ، هذا من جهة . ومن الجهة الاخرى فانه لما كانت الكتابة لا تملك ما يملكه المتكلمون من مناسبة وحركات ونغمة في الصوت توضح الكلام الملفوظ فانه لا بدّ لها من ان تستخدم في دقة قواعد النحو ومفردات اللغة استخداماً محكماً وإلا جاءت غامضة غير مفهومة . ومن ثَمّ فاللغة المكتوبة توضح الصيغ النحوية كما توضح قِيَمَ المفردات . وهي من هذه الناحية عظيمة القيمة بالنسبة للباحث في علم اللسان . وتظهر قيمتها عندما نحاول وصف لغة لا كتابة لها . ولكننا مع ذلك نكوّن فكرة خاطئة عن لغة ملفوظة عندما نحكم عليها بصيغتها المكتوبة فقط . والشخص الذي اعتاد الكتابة تأخذه الدهشة عندما يطّلع على الاقوال التي تفوّه بها في محادثة عادية أو في خطبة مرتجلة اذا دونت تلك الاقوال بالاختزال .

وفضلاً عن ذلك نلاحظ ان اللغة المكتوبة كثيراً ما تكون لغة خاصة لا علاقة لها باللغة المنطوقة وذلك بسبب الملابسات التي تحدثنا عنها سابقاً ، ثم لأن تلك اللغة المكتوبة قد تكون لغة دينية أو لغة اجنبية أو شبه اجنبية .

ومن ثم فالدراسة اللغوية دراسة شديدة التعقد والتنوّع وهناك بون شاسع بين بساطة القواعد النحوية بساطة نسبية ــ أعني تلك

القواعد التي تصف اللغات العامة ـ وبين تنوّع الحقائق اللغوية الذي أشرنا اليه فيما سبق . وعلماء اللسان انفسهم كثيراً ما ينسون ذلك .

انه لمن المستحيل ان ندخل هنا في فحص الصعوبات التي نلقاها عندما نريد ان نحدّد الظواهر على وجه دقيق فاذا كان الأمر يتعلق بلغة محلية نجد ان الأشخاص الذين يستخدمونها محرومون عادة من كل ثقافة لغوية لازمة لوصفها . وأمـــا الأجانب ففضلاً عن أنهم يفهمونها فهما غير كامل مع تفاوتهم في ذلك ، فانهم يجدون مشقة في تمييز الاشخاص الذين يتكلمونها عـــلى نحو عادي . بل انهم عندما يعثرون على هؤلاء الاشخاص لا يستطيعون بسهولة ان يأخـــذوا عنهم المعلومات اللازمـــة وذلك لأن هؤلاء الاشخاص انفسهم لا يعون على وجه دقيق الطريقة التي يتكلمون بها . بل ان مجرد محادثة شخص يتكلم لغوة ما لشخص آخر لا يتكلم نفس هذه اللغوة عادة ليكفي لالقاء الاضطراب في استعمال تلك اللغوة والحَيْدة بها عن الدقة . وعرض النتائج في ذاته صعب لأننـــا اذا قدمناه عن اللغة نفسها جاء مسرف الطول . فالوصف الكامل للغوات مقاطعة ما سيكون من الضخامة بحيث لا يستطيع احد ان يستخدمه . واذا اتخذنا اساساً لذلك العرض المقارنة بلهجة اخرى او بلغة عامة ما ، جاء فاسداً في مبدئه . ونحن لا نجـد نفس تلـك الصعوبة بالنسبة للغات العامة . وذلك لان وجودها ذاته يفترض ان قواعدها قد وضعت الى حد ما وإن كنا نجد أنفسنا عندئذ أمام مواضعات مصطنعة بعض الشيء بحيث لا تعطي فكرة دقيقة عن طريقة تطور اللغة تطوراً يتم دون وعي ممن يتكلمونها . واللغات المكتوبة هي أسهل اللغات

دراسة ولكننا قد رأينا الى حـــد لا يجوز لنا ان نعتقد ان اللغة المكتوبة تطابق اللغة المنطوقة فعلا .

لغة النصوص

وفيا يختص باللغات القديمة لا نملك الا نصوصاً مكتوبة ومن ثم وجب ألا ننسى قط انه لا يجوز ان ندرسها كما لو كانت لدينا اللغة المنطوقة . الا أننا رغم هذه الحقيقة نجد ان مؤرخ اللغة في موقف خير من موقف المؤرخين العاديين ،وذلك لأن الشهود الذين يدونون الحوادث تكون لهم فيها عادة مصلحة ومن ثم تتطرق الأغراض الى ما يدونون . وهم قـــد يقصدون الى احداث أثر ما فيشوهون الحوادث . ثم ان الوقائع التي لا تُعرض لذاتها لا تُذكر الا مجزأة او تلميحاً . وعلى العكس من ذلك النصوص التي يستخدمها علماء اللسان فانها قد كتبت لتفهم وهي تمثل – إلا في الشاذ – نماذج من اللغة التي كان يكتبها أصحاب تلك النصوص : واذا كان محررها قد كتبها ليخدع القارىء عن وقائع بعينها فانه مع ذلك قـــد استخدم اللغة دون غرض خـاص فيما يختص بتلك اللغة . والنص – ما دام طويلا طولا كافيــاً – يعطي فكرة تامة عن بِنْية اللغة المستعملة . واذن فتاريخ اللغة يعمل بشواهـــد يمكن للمؤرخين العاديين ان يحسدوه على ما فيها من أمانة واخلاص . وعلى العكس من ذلك إذا كانت النصوص المستعملة لم تحفظ في مخطوطات أو على آثار معاصرة لتحريرها ، فأن واجب الباحث في علم اللسان ان يحذر فوق حذر المؤرخين . وذلك لان لغة النصوص كثـيراً ما يغيرهـا

النساخ والناشرون تبعاً لتغير اللغة الملفوظة والمكتوبة وبخاصة في الأزمنة التي تلي تحريرها مباشرة. ومن ثم كان من واجب الباحث في علم اللسان ان يطبق في دقة قواعد النقد التاريخي على كل نص قد مرّ بوسائط لاحقة لتحريره الأول.

وأياً ما يكون الامر فان الشواهد لا قيمة لها في أغلب الأحيان إلا بالنسبة للغة المكتوبة. فنحن لا نستطيع حتى في اكثر الحالات مواتاة ان نكوّن عن نطق لغة قديمة إلا فكرة ناقصة جزئية. وسوف نرى فيما بعدُ عند كلامنا على علم اللسان التاريخي باي حيلة مدهشة استطاع علم النحو المقارن إن يتغلب على تلك الصعوبة.

اللغة كحقيقة اجتماعية

الباحث في علم اللسان لا يلاحظ اللغة نفسها بل مجرد مظاهرها الخارجية التي هي مظهر وجود تلك اللغة وسبيل انتقالها والمحافظة عليها. وهذا صحيح سواء كان موضوع درسه لغوة او لغة عامة او لغة مكتوبة. اللغة كائن مثالي لا سبيل الى ادراكه ادراكا مباشراً. وهي توجد عندما يتكوّن لعدد من الافراد عادات متشابهة في النطق وعلاقات تقوم بين اصوات معينة وبين معان معينة.. وكل فرد يتكلم لغة ما، يملك على نحو ما كل هذه الحقيقة التي هي حقيقة نفسية صرفة. ولكننا لا نستطيع ان نتحدث عن اللغة إلا اذا وازت تلك الحقيقة الموجودة عند الفرد حقائقُ اخرى عند افراد آخرين، أو على الاقل اذا كانت قد وازت أو كان من الممكن ان تكون قد وازت. واللغة ليست لغة إلا باعتبارها أداة للاتصال.

تستخدم لكي تثير عند الافراد الآخرين استجابات محددة .

والباحث في علم اللسان، حتى عندما يفكر في نفسه، لا يستطيع ان يلاحظ غير حقائق لغوية خاصة ، جملًا ومفردات . ولكنه عادة لا يلاحظ تلك الملكة التي يستطيع بواسطتها ان يكوّن صيغاً ولا تلك الآلية التي ينطق بها تلك الصيغ ويفكر فيها ويفهمها . الحقيقة الداخلية للغة تفلت من الباحث في علم اللسان كما تفلت من غيره من المتكلمين وانه لمن الممكن ان نلاحظ بكل الوسائل المعروفة صوتا او كلمة مفردة او عامل صيغة .ولكن هذه ليست الا حقائق عابرة، وهي لا تتحقق بذاتها مرتين كما انها عارية عن كل قيمة ثابتة . الكائن الحي في التاريخ الطبيعي ليس إلا ممثلًا عابراً لجنس هو الحقيقة الثابتة ولكنه يتمتع لوقت ما بوجود مستقل . ومن ثم كانت له الى حد ما حقيقة ذاتية . واما الظاهرة اللغوية فعلى العكس من ذلك نجد أنها تختفي مباشرة بمجرد ادراكنا لها او نطقها أو فهمها ، فلا بقاء لها إلا ان تحتفظ الكتابة أو يحتفظ التسجيل الميكانيكي بذكراها . ومع ذلك فذكرى ظاهرة ما رغم ثباتها لا تكوّن حقيقة مستقلة .

والباحث في علم اللسان يسجلها لكي يحتفظ بالكلام الملفوظ ماثلًا امام عينيه . ولكن موضع دراسته ليس ذلك الشيء المثبت الميت وانما هو حقيقة لا تلمس ، حقيقة ليس ثمة وسيلة للوصول اليها مباشرة . حقيقة اللغة الداخلية هي مجموعة العلاقات التي توجد في نفس كل من يتكلمها من افراد مجموعة ما . وهي في نفس الوقت ذلك الالتزام الذي يضطر الفرد الى ان يحافظ على الموازنة الدقيقة بين تلك العلاقات كحقيقة اجتماعية صرفة شيء معلق :

immanente خارج عن الافراد .

كل ملفوظ يتاح للباحث في علم اللسان ملاحظته في نفسه هو او في نفس غيره ليس إلا مظهراً خارجياً لتلك الحقيقة ولكنه لا يمثل قط صورة تامة لها ، وفي كل مرة تعطيه الملابسات الخاصة هيئة ذاتية . ثم ان اللغة تحل ممكنات لم تتحقق قط وان كان من الممكن تحققها اذا واتتها الملابسات . فالفعل voler (يطير) لم يستعمل من قبل مع ضمير المتكلم حتى جاء يوم دعت الحاجة الى استعماله فلم يتردد احد في ان يقول : je vole ; j'ai volé: je volerai ; je volerais أطير وطرت وسأطير ولكنت أطير .

وعندما خلق الفعل télégraphier أو الفعل téléphoner « يرسل برقية » أو «يتحدث بالتلفون » لم يجد أحد مشقة في ان يقول : je télégraphierai « سأرسل برقية » او j'ai téléphoné « لقد تحدثت بالتلفون » . اللغة لا تعرف التحجر وهي قدرة على العمل ، قدرة كامنة . واذن فما على الباحث وصفه ليس مجموعة من الحقائق الفعلية بل مجموعة من الممكنات التي يمكن ان تتحقق عندما تدعو الحاجة . بل ان الحقائق الفعلية ليست هنا موضع البحث وما هي إلا وسائل نستطيع بفضلها أن نكوّن بطريق غير مباشر فكرة عن الموضوع الحقيقي .

وتحديد هذا الموضوع المثالي امر هين نسبياً عندما يتعلق كما رأينا بلغات مكتوبة أو لغات عامة وهذان النوعان شيء واحد الى حد بعيد وذلك لان الانموذج المثالي في هذه الحالات محدد بحكم تعريفه ذاته تحديداً دقيقاً أحيانا وممعناً في الدقة احيانا أخرى .

وعدد كبير من الافراد المختلفين يسعون الى احتذاء نمطه واعين لما يفعلون وعياً متفاوت الدرجات .

اما في دراسة اللغوات فالصعوبة على العكس كبيرة . يجب ان نستقري الانموذج العادي بالملاحظـة . ونحن نصل الى ذلك بتقييد عدد متفاوت الكثرة من المنطوقات اللغوية التي تصدر عن عدد قليل أو كثير من الافراد . ولما كان أفراد كل مجموعة اجتماعية يتكلمون لغوات متحدة الى حـد بعيد فاننا نستطيع مبدئياً ان نكتفي بملاحظة فرد واحد من المجموعة وذلك طبعاً مع صرف النظر عن المفارقات التي سبق ان أعطينافكرة عنها. وفي الحق اننـا لا نعدم أن نجد عدة اوصاف للغوات تستند الى ملاحظة فرد واحد .ولكن الفرد الواحد مهما دققنا في اختياره من الممكن ان يكون فيـــه بعض الشذوذ الدقيق في بعض النواحي . بل انــه لمن النادر ان يكون فرد ما عاديا عـــلى نحو مطلق . ومن الممكن كذلك ان تكون فيه مواضع نقص وبخاصة في مفردات اللغة . واخيراً لكل فرد استعمالاته الخاصة، وهذه وان تكن موافقة للانموذج العادي إلا أنها مع ذلك ليست اساسية فيه. ومن ثمّ كان من الواجب ان نلاحظ عدة أفراد . وواجب الملاحِظ هو أن يُنحّي كل الملابسات التي تكيف لغوة الافراد الذين يلاحِظهم تكييفاً خاصاً . وذلك لكي يحصل على اللغة التي تعتبر مقياساً . ونحن إذ نعرف ذلك المقياس لن نستطيع الا أن نخطط الحدود التي يعمل فيها كل عنصر من عناصر اللغة . ثم اننا لا نستطيع ان نلاحظ غير المتوسطات ، وذلك فيما عدا الحالات التي نرى فيها الاشخاص الذين ندرس لغتهم يصدبهم هـذا

النحو من الكلام أو ذاك . واللغة التي تعتبر مقياساً لا يمكن ان تُرصد وتُلاحظ بدقة إلا عندما يكون لدى من يتكلمها وعي بها إلى حد . وملاحظة الحقائق المحلية نفسها باللغة المشقة . ومن النادر ان تكون اللغوة هي اللغة الاصلية للشخص الذي يدرسها ، ومن ثم يرى نفسه مضطراً الى أن يسأل الآخرين . وهو مهما احتاط في اسئلته لا بد مستهدف لأن يفسد الطريقة التي يتكلم بها الاشخاص الذين يلاحظهم في احوال الحياة العادية . ونحن نعرف على وجه التقريب كيف يجب ان تعمل الملاحظات لتكون لها قيمة حقيقية . ولكنه من المستحيل في أغلب الاحيان ان نبلغ في ملاحظاتنا ما يجب من الدقة والضبط . ومعظم الحقائق المحلية التي جمعت قد عملت على نحو يثير الانتقادات . ولكن ذلك لا يسلبها قيمتها ولا يحول دون استخدامها استخداماً صحيحاً من الناحية التاريخية بفضل مزايا المنهج المقارن .

ومن ثم كانت اللغات العامة واللغات المكتوبة ، البالغة الاهمية بل والمسيطرة أحياناً كثيرة في نمو دراسات علم اللسان، هي اللغات الاصلح للدراسة وان تكن النتائج التي تستخلص من دراستها من الواجب ان تصحح بدراسة اللغوات ، وذلك لأن ما يلوح في بعضها كحقائق ثابتة ليس له في الاخرى إلا صفة المقياس المثالي. واللغوات هي التي تمثل الحالة القديمة وبفضلها نستطيع أن نفسر معظم التغيرات اللغوية التي تسمى ذاتية ..

— ٣ —

كل لغة وليدة لتطور تاريخي تدخل فيه مؤثرات عديدة متباينة

ومن ثم كانت اللغة اكثر من أي ظاهرة اجتماعية اخرى غير قابلة للتفسير إلا بفضل التاريخ . نعم انه من الممكن، بل ومن الواجب، أن توصف كل لغة في ذاتها دون إدخال أي اعتبار تاريخي ، كما أنه من الممكن ، ومن الواجب ، ان نحدد القواعد العامة لبناء اللغة دون ان نتساءل عن نشأة تلك المبادىء . ولما كانت كل اللغـــات المعروفة الحية منها والميتة تطبق في الواقع مبادىء مشتركة فاننا بلا ريب سننساق الى مشكلة اصل اللغة ، تلك المشكلةالتي لا تقبل حلاً علمياً في الحالة الراهنة لمعلوماتنا . ولكن طرق الاداء الخاصة بكل لغة لا تقبل إلا تفسيراً تاريخياً وإن يكن دائماً تفسيراً جزئياً .

علم اللسان التـاريخي

إنتاريخ اللغات لا يوضع بفضل النصوص فحسب. ومعظم اللغات التي تُتكلم اليوم لم يُبدأ في كتابتها إلا من زمن حديث، والكثير منها لم يُكتب إلا في عصرنا الحاضر. واللغات القليلة العدد التي لدينا منها شواهد قديمة قدماً نسبياً – لاحقة ، بكثير ، للآثار الانسانية القديمة التي وصلت الينا – قد خرجت جزئياً من الاستعمال. فاللغات البابلية والسوسية (susien) والمصرية لا تمثلها اليوم أي لغة حية . وفي الحالات التي تكون لدينا فيها نصوص قديمـة للغات لا تزال تُتكلم نجد ان السلسلة غير متصلة . خذ مثلاً اللغات الايرانية، وهي من هذه الناحية محظوظة ، تجد ان لدينا أولا لغة النقوش الأكمينية (اواخر القرن السادس ق . م) ثم لغة الأفستا Avesta . وهي ربما كانت في جزء منها أقدم من الاولى . وهاتان اللغتان لا نعرفها إلا

بمعرفة مفككة . وبعد ذلك بزمن طويل نجد اللغة الرسمية للعهد الساساني (القرن الثالث بعد الميلاد) ثم لغة النصوص المانوية التي وجدت في تورفان : Tourfan . ثم في القرن العاشر نجد اللغة الفارسية الادبية . وأخيراً في العصر الحاضر نجد عدة لغات. «فاللغة الفارسية القديمة لغة دارا » و «بهلوي تورفان والساسانيين» و «فارسي الفردوسي » و « الفارسي الرسمي الحاضر » تكوّن اربعة عصور للغة تلوح تقريباً واحدة . ومع ذلك فليست لدينا نصوص نصل بها بين تلك العصور بحيث يتصل السابق باللاحق . وبين اللغة الفارسية القديمة لغة دارا ، وبين لغة الساسانيين بنوع خاص قد حدث تطور اساسي لا نملك أي شاهد صريح عليه . وأما عن اللغات الايرانية الحديثة غير اللغة الفارسية ومجموعة لغات «بامير» التي نجد صيغتها القديمة في اللغة السوجدية Sogdien التي اكتشفت حديثاً ، فليس لأي منها تاريخ . ونحن على العكس من ذلك نجهل اللغة الحديثة التي ربما تعتبر استمراراً لتلك اللغة التي احتفظت لنا نصوص الأفستا بذكراها. واللغات الرومانية هي تطورات مختلفة للغة اللاتينية ، ومع ذلك فاللغة اللاتينية الادبية لا تفسر اللغات اللاتينية الحديثة . وذلك لانه من الواجب ان نعتبر نقطة البدء لغة الكلام اللاتينية لا اللغة المكتوبة . واذا كانت بعض النصوص قد كشفت عن شيء من لغة الكلام اللاتينية فاننا لا نستطيع ان نقدر قيمة هذه الآثار المنفردة إلا بمقارنة اللغات الرومانية بعضها ببعض . وبين النصوص الأولى لكل لغة رومانية وبين اللغة اللاتينية المكتوبة هوة واسعة . وحتى في الحالات الاكثر مواتاة حيث نجد ان اللغة لم تتحجر ولم تبق

كالسنسكريتية واللاتينية الادبية ثابتة تقريباً خلال القرون ممـــا نستطيع معه ان نلمح لغة الكلام خلال النصوص. نقول انه حتى في هذه الحالات لا تعطينا النصوص – كما سبق انرأينا – عن اللغة فكرة دقيقة قط . والاكتفاء بالنصوص المكتوبة في تتبع تغيرات اللغة ، عندما نضع نحواً تاريخياً للغة ما ، عبث أطفال . ومن ثم كان الباحث في عـــلم اللسان مضطراً الى استخدام وسائل خاصة به ، اعني وسائل النحو المقارن .

مبادىء النحو المقارن

النحو المقارن يستند الى بعض مبادىء اساسية يجب ان تُصاغ صياغة صريحة . وذلك لان معظم الاخطاء التي تُرتكب في عـــلم اللسان إنما تصدر عن استخدام وسائل النحو المقارن في حالات لا يمكن ان تطبق فيها مبادئه .

واول تلك المبادىء هو ان اللغات تصدر عن تغييرات عناصرها الموجودة لا عن خَلقٍ جديد . فمن يريد ان يضع اسما لشيء جديد يستعير عادة عناصر الكلمة من لغته أو من لغـــة اجنبية وذلك كاللفظة الالمانية: Fernsprecher من Fern «بعيداً» و Sprecher «متحدث» في مقابـــل اللفظة الفرنسية téléphone من اليونانية tête «بعيداً» و fônê «صوت» ومع ذلك فقد يحدث ان يخلق لفظ كالكلمة Gaz ولكن ذكريات الالفاظ التي سمعت مستقرة فيها. وكلمة «جاز» تذكرنا بلفظة Geist «نفس» وخلق الالفاظ الموحية لم يقف قط ، ومع ذلك فالالفاظ الفرنسية التي خلقت لتدل عـــلى

الضوضاء نحو crisser « صرير الانيــــاب » cracer « قعقعة » و croquer « قرض » تدخل في سلاسل من الصيغ الموجودة . واذنه فالأمر ليس امر خلق خالص . وهذه الحالة بعدُ محدودة للغاية . وانه وان يكن كثيراً ما يحـــدث أن يخلق الافراد غير العاديين أو الاطفال الذين يوضعون في ظروف غير عادية مفردات جديدة إلا انه فضلا عن اننا نعثر في تلك المفردات دائماً عـــلى عناصر لغوية اتيحت للمخترعين فرصةُ سماعها فان هذه المفردات تختفي على اكثر تقدير باختفاء الاشخاص الذين كوّنوها . وبصرف النظر عن اللغات العالمية التي صُنعت والتي لم تستطع ان تحيا إلا في حدود استعمالها للكلمات الموجودة دون تحويرها تحويراً مسرفاً لا نجـد مثلا لمحاولة خلق مجموعات من الصيغ النحوية . ومن ثم فانه اذا لم يكـن من الثابت قط ان بعض الكلمات لا يمكن ان تُعتبر مخلوقة من العدم على نحو ما بحيث لا نجد لها اصلا اشتقاقياً إلا انــه من المسلم به ان كل طريقة خاصة للنطق وكل نظام نحويّ عام لا بد ان يكون استمراراً لطريقة او نظام سابقين .

« ب » والمبدأ الثاني هو انه ليس ثمة بـين الاصطلاح اللغوي والشيء الذي وضع له ذلك الاصطلاح اي علاقة طبيعية ، وإنما هي علاقة تقاليد . ففي قولنا: je dis « انا اتكلم » للعبارة عن المتكلم و tu dis « أنت تتكلم » للعبارة عن المخاطب و il dit : « هو يتكلم » للعبارة عن الغائب ليس في الضمائر je, tu, il : « أنا » و « أنت » و « هو » شيء يدل بذاته على احد الاشخاص الثلاثة ، وإنما تُستعمل لأنه في جماعة بشرية ما جرت التقاليد بأن تستعمل تلك الصيـغ .

ومن ثم نرى اكثر علماء اللسان حنكة عاجزاً كغيره من الناس أمام خطبة أو نص مكتوب في لغة مجهولة جهلا تاماً . نعم ان كل اللغات تحتوي على عدد من أفعال وأسماء الاصوات onomatopées وعلى عدة ألفاظ موحية يقوم بين جرس حروفها وبين ما تعبر عنه علاقة ما . كما ان هناك بلا ريب عدة معان يعبر عنها بأنواع مخصوصة من الاصوات على نحو ما نرى الاشياء القريبة يعبر عنها بالحروف الصائتة المفتوحة والاشياء البعيدة بالحروف الصائتة المغلقة ، ومن ثم المعارضة بين ici « هنا » للقريب و là « هناك » للبعيد وبالالمانية heir « هنا » و dort « هناك » . فان هذا التعارض لا يمكن ان يكون مجرد اتفاق . ومما لا شك فيه أيضاً أن هناك طرقاً لترتيب الالفاظ أقرب الى الطبيعة من غيرها . ففي الجملة الاسمية مثلاً « الانسان خيّر » l'homme est bon يوضع المسند اليه عادة – وإن لم يكن دائماً – قبل المسند باعتبار اننا نسند المسند إلى المسند اليه. ومع ذلك فكل هذه الخصائص المحدودة العدد لا تكفي لنحدد لغة ما ولا لنفهم لغة نجهلها . وإذن فكل اتفاق في التفاصيل بين لغتين لا يصدر إلا عن رابطة تقليدية تاريخية بينهما .

والتقليد tradition يمكن ان يوجد على نحوين :

تنتقل اللغة عادة باستعمال الاطفال لها في الحديث إذ يتمثلون لغة محيطهم اي لغة الهيئة الاجتماعية التي ينتمون اليها بمولدهم . ولقد يحدث ان يتكلم الوسط الاجتماعي للطفل لغتين في وقت واحد فيتعلمها الطفل معاً ويتكلمها عند انتهاء تعليمه . ولكن هذه حالة نادرة وفي العادة عندما تحدث لا تلبث زمناً طويلا إذ تتغلب احدى

اللغتين على الاخرى في الوسط الاجتماعي .

والنحو الآخر لانتقال اللغات يكون عندما يتعلم الفرد لغة أخرى علاوة على لغته الاصلية فانه يكون عرضة لأن يدخل في لغته الاصلية بعض عناصر اللغة الثانية . وينتهي الامر بمواطنيه الذين يجهلون اللغة الثانية إلى ان يستخدموا تلك العناصر في استعمالهم العادي ، وبذلك تصبح جزءاً من لغتهم الاصلية . وهذا ما يسمى بالاستعارة [1] . وانه لمن المعترف به اليوم ان الاستعارة تلعب دوراً هاماً في نمو اللغات وهي ليست ظاهرة شاذة بل عادية كثيرة الحدوث مثلها مثل انتقال اللغات من الآباء الى الابناء . وهناك حالتان حسبما تكون اللغة الاولى والثانية متميزتين تميزاً مطلقاً أو تلوحان للمتكلمين كصيغتين للغة واحدة يمكن ان ترد احداهما الى الاخرى بطريقة الاحلال المطرد . فالفرنسي عندما يدخل في حديثه كلمة انكليزية ، والتركي عندما يأخذ كلمة فارسية او عربية ، تكون الاستعارة واضحة . ولكن عندما يستعمل احد سكان قريةٍ بشمال فرنسا كلمة فرنسية او يصنع كلمة فرنسية من احدى كلمات لهجته فانه يلجأ الى الاحلال المطرد . فما ينطقه الفرنسي wa « وَ » تصبح في اللهجة المحلية مثلاً wé « وى » « واو مفتوحة ممالة » ويكون لدى المتكلم وعيٌ بتلك المقابلات . وهكذا عندما ينتقل من لهجته المحلية الى اللغة الفرنسية أو العكس يقوم بالاحلالات الملائمة بحيث

---

(١) الاستعارة بمعناها اللغوي اي الاخذ من لغة اخرى لا الاستعارة المعروفة في علم البيان .

تتنكر الاستعارات غالباً ويصبح من المستحيل ان نقرر اذا انطلقت الكلمة lwé هل هي كلمة محلية أو كلمة مستعارة من اللفظ الفرنسي العام « lwa قانون= loi »وقد تنكرت باحلال نطق اللهجة lwé محل النطق الفرنسي العام(اي الباريسي) lwa.وفي مثل هذه الحالة تتعدد الاستعارات بحيث يمكن القول بوجود تيار مستمر غير محسوس بين اللغتين في لغة الفلاح الفرنسي – اعني فلاح شمال فرنسا اذ ان لهجات الجنوب مستقلة . ان اللهجة هي اللغة الفرنسية ملهوجة ، واللغة الفرنسية هي اللهجة مفرنسة. وهذه الاستعارات من المستحيل الى حد ما تمييزها عن اللغة الاصلية التي تتناقلها الاجيال ، ومن الممكن ان تمتد الى كل الظواهر اللغوية نطقاً ونحواً ومفردات ، واما اذا كانت الاستعارة بين لغتين متميزتين تمام التمييز عند من يتكلمونها فانها على العكس تقتصر على المفردات أو على الاكثر على بعض الطرق التي تتكون بها الكلمات . وذلك لانه لا يمكن ان نستعير من لغة اجنبية صيغة نحوية مفردة . وإنما نستعير عادة النظام النحوي كله . وعندئذ نتخلى عن نظام لغتنا الاصلية وهذا هو ما نسميه استبدال اللغة بغيرها استبدالا تاماً .

واذن فكل مجموعة من الموافقات (concordances) المطردة في الصيغ النحوية بين لغتين تدل على ان هاتين اللغتين تمثلان حالتين للغة واحدة تطورت فانتهت اليهما . وذلك لأنه لما لم تكن ثمة علاقة جبرية بين الصيغ والاشياء التي تعبر عنها تلك الصيغ فان وجود مجموعة من الصيغ المتوافقة في لغتين مختلفتين يعتبر شيئاً غير معقول. فلو لم تكن اللغة الايطالية والاسبانية والفرنسية مثلا من الناحية

التاريخية لغة واحدة هي اللاتينية التي تطورت تطورات مختلفة حتى انتهت الى تلك اللغات الثلاث — لو لم يكن ذلك لما استطعنا ان نفسر استعمال اللغة الايطالية لـ io, tu, egli والاسبانية لـ yo, tu, il والفرنسية لـ tu, il (في الفرنسية القديمة yo) je للدلالة على الاشخاص الثلاثة (المتكلم والمخاطب والغائب) في المفرد . وكذلك الحال في غير ذلك من الموافقات المطردة التي لا عدد لها في اللغات الثلاث .

ومن هنا كانت المشكلة التي تعرض لمؤرخ اللغة هي انه ما دامت اللغات لا تخلق بل تغيّر ، وما دامت العبارة اللغوية تقليدية فانه من الواجب ان نميّز ، في الموافقات التي توجد بين لغتين او اكثر بين ما يعتبر منها نمواً ذاتياً وبين ما يفترض قيام تقليد مشترك بين تلك اللغات . فمن الممكن ان يكون التوافق بين مفردات منعزلة نتيجة للمصادفة البحتة على نحو ما تدل كلمة bad في اللغتين الفارسية والانجليزية على معنى (ردىء) كما انه من الممكن ان يكون نتيجة لاستعارة اللغتين من لغة واحدة. ولكن مجموعة من الموافقات النحوية في عوامل الصيغة لا في قواعد ترتيب الالفاظ فحسب تدل على وحدة الاصل دلالة ثابتة .

اذا كانت الموافقات عديدة تامة منتظمة في وحدات، كانت المشكلة سهلة الحل . فليس من الضروري ان نكون من علماء اللسان لندرك أن اللغات الاندوأوربية التي لدينا منها شواهد سابقة على ميلاد المسيح (هي الاند إيرانية واليونانية واللاتينية والاسكو أومبريانية) ليست إلا صيغاً مختلفة للغة اصلية واحدة . وأما عن اللغات التي لم تعرف إلا بعد ذلك بنحو عشرة قرون كالكلتية

والجرمانية والصقلبية والارمنية فان الامر اقل وضوحاً . ولو أنه لم يكن لدينا من الاندو أوربية غير اللغات المحلية الحالية اعني الفرنسية والايرلندية والانجليزية والالمانية والصقلبية والارمنية والايرانية والهندية إذن لوجدنا صعوبة في اثبات رجوعها الى لغة واحدة ولأصبح من المستحيل ان نضع لها نحواً مقارناً . لقد استطاع التطور الذي اختلف سرعة وبطأ خلال الفين وخمسمائة عام ان يمحو الجانب الاكبر من آثار الوحدة القديمة فأصبح من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، تعيينُ الوحدات الموغلة في القدم . وفيما عدا اللغات السامية والاندو أوربية لا نجد وثائق ترجع الى القرن الخامس قبل المسيح بل ولا الى القرن الخامس بعد المسيح إلا في النادر . ونحن اذا عثرنا بقرابات لغوية واضحة مقطوع بها ظهر لنا انها نتيجة لوحدة اصلية تحطمت في زمن قريب منها نسبياً . فلغة مدغشقر le malgache التي من السهل أن ندرك انها من لغة الملايا او على الادق من لغات جزر الهند الشرقية l'indonesien لم تنفصل عن لغة الملايا الا بعد ظهور المسيحية . إن النحو المقارن يمكننا من سد النقص الذي يجده علم اللسان التاريخي في الوثائق ولكنه لا يسمح لنا بان نرد حدود معارفنا الى ما خلف أقدم الوثائق التي لدينا.

ذلك لان اللغات في الواقع دائمة التغير . والتغييرات تنتج اولا عن الطريقتين اللتين تنتقل اللغات بواسطتهما : ففي كل مرة يتعلم فيها الاطفال الكلام تختلف اللغة التي يثبتون عليها عن لغة محيطهم. وهذه الاختلافات على صغرها في كل مرة تتجمع بتعاقب الاجيال . ومن جهة اخرى تستعير اللغات من غيرها وتلك العاريات تتجمع هي

الاخرى ، وثمة تغييرات اخرى تنتج عن مجرد استخــدام اللغة . فالعنصر اللغوي الذي يستعمل يصبح استعماله اكثر سهولة عــلى المتكلم واكثر إلفاً ، ومن ثم اقل دلالة . ولهذا نرى مجموعات من الالفاظ التي كانت في الاصل مستقلة تجنح الى الاتحــاد ، ونرى اختصارات في النطق . وهذه الظواهر تسبب ردود فعل عكسية . واخيراً كثيراً ما يحدث ان يغير الافراد أو ان تغير الجماعــات لغاتها . وهذا التغيير لا بد محدثٌ تحويراً في اللغــة التي يتخذونها بدلا عن لغتهم الاصلية . واذن فكل لغة قد تغيرت بمرور بضعة قرون على استخدامها تغيراً يعتد به حتى عندما يكون ذلك التغير أبطأ ما يكون .

« ج » وهناك مبدأ ثالث اساسي في النحو المقارن مضمونُهُ ان التغير لا يحدث على نحو مشتّت غــير مطرد بل يحدث وفقاً لقواعد ثابتة يمكن ان نصوغها في دقة اذا تناولنا لغة ما في عصرين متتابعين من تاريخ تطورها ، وذلك عــلى شرط الا تكون التغيرات التي حدثت بين العصرين المواجهين اكثر عدداً أو جوهرية مما يجب لنقول باستمرار اللغة الواحدة .

إن التغير يحدث على نحو مستقل متميز في كل عنصر من عناصر اللغة الثلاثة ، الصوت وعامل الصيغة والكلمة .

والاصوات تتطور مستقلةً عن المعنى الذي تعبر عنــه بل ولو أضر التطور بذلك المعنى . وكثيراً ما يحــدث ان تختفي العناصر الصوتية التي تكوّن جزءاً عضويا من الصيغة النحوية أو تتغير تغيراً يجعل تلك الصيغة غير مفهومة . وينجم عن ذلك تجديدات نحوية .

ولكن التطور الصوتي يحدث دون مراعاة للمعنى . ولو اننا واجهنا لغة ما في فترتين من تاريخهـا للاحظنا ان الصوت « ا » في الفترة الاولى تقابله باستمرار في الفترة الثانية الصوت « ب » . خذ لذلك مثلا اللغة اللاتينية من جهة واللغة الفرنسية الحديثة من جهة اخرى. فهما تمثّلان فترتين متتابعتين في تاريخ لغة واحدة– تجد ان الصوت اللاتيني k (ك)قبل a (آ) يقابله في الفرنسية باستمرار cha (ش). فالكلمات اللاتينية : canem (كلب) ، cantor (مغني) caballum (حصان)... الخ يقابلها في الفرنسية : cheval, chantre, chien ... الخ فاذا خرج عن هذه المقابلات شيء فانما يكون ذلك لأسباب خاصة . فاذا وجدت مثلًا ان الكلمة اللاتينية caveam قد اصبحت cage (قفص) فانما ذلك لان عوامل صوتية اخرى قـد عارضت الاولى . واذا كانت : capsam يقابلها caisse (صندوق) فذلك لان الكلمة الاخيرة استعارتها اللغة الفرنسية من لغة البروفانس. والكلمة الفرنسية موجودة هي الاخرى ولكن بمعنى خاص وبالـ ch (ش) المتوقعة وهي كلمة : chasse (صندوق خاص توضع بـه آثار القديسين) . والفعل التبعي : vincat « أن ينتصر » انما يقابله qu'il vainque كنتيجة لتعميم الـ k الموجودة في اسم المفعول vaincu وفي بعض الصيغ الاخرى من تصريف الفعل vaincre . واذن فالمقابلات الصوتية في العادة مطردة وذلك ما لم تعارضهـا عوامل صوتية اخرى او استعارات او اعتبارات نحوية. ونحن نسمي امثال تلك المقابلات المطردة قانونا صوتيا .

القانون الصوتي اذن يعبر عن علاقة بين حالتين متتابعتين للغة

واحدة في وسط اجتماعي ما . فهو ليس قانونا عاماً شبيهاً بقانون في علم الطبيعة أو علم الكيمياء . وهو يعبر عن وقائع خاصة بلفظة ما في فترتين متميزتين في مكان ما . ولكنه يعبر عن ذلك على نحو بلغ من الدقة أن رأينا الاكتشافات اللاحقة تثبت صحة الصيغ التي اضطر علماء اللسان الى افتراضها . فمن ذلك مثلا أن العلماء منذ زمن بعيد كانوا قد استقروا على ان الصيغة اللاتينية iumentum (دابة) يجب أن تكون صادرة عن الصيغة iouksmentom لا ioukmentom وذلك لان الـ m في اللاتيني الكلاسيكي لا تقابل km في لغة ما قبل التاريخ . وبالفعل عندما اكتشف نقش حجري لاتيني أقدم من كل ما لدينا وهو نقش حجر الفورم (Forum) الاسود وجدت فيه الصيغة التي افترضها العلماء . والحالات التي من هذا النوع كثيرة العدد .

إن القانون الصوتي يفترض تغيراً ولكنه لا يبصرنا بسبب ذلك التغير . هل كان لأن السكان قد غيروا لغتهم ؟ أم كان لنمو اللغة نمواً تلقائياً ؟ أم كان لاستعارة ؟ كما لا يبصرنا بطريقة حدوث ذلك التغير ، أكان بسيطاً ؟ أم متعدداً ؟ وهل التغييرات كانت متتابعة ؟ أم متعاصرة ؟ فالصوت d (د) في أول الكلمات الالمانية يقابل الصوت t (ت) في اللغة الاندواوربية الاولى . ولهذا نجد في الالمانية donner (رعد) في مقابل tonat (يرعد) اللاتينية . ولكن الـ t الاندواوربية لم تصبح d في الالمانية دفعة واحدة بل بعد مرورها بعدة تغييرات انتهت الى d . فاذا كان من الصواب أن نقول ان الـ d الالمانية تقابل الـ t الاندواوربية فهذا ليس

معناه انه في وقت ما قد انقلبت الـ t الى d دفعةً واحـــدة . فالقانون الصوتي يفترض اذن تغييرات ولكنه لا يفصح عنها وما هو إلا معادلة للتغيير عن المقابلات بين حالتين لغويتين .

وبالمثل اذا عارضنا الصيغ النحوية للغــة ما فى فترتين متتابعتين من تاريخها نجد ان هنـــاك مقابلات مطردة . فالاستقبال مثلاً في اللغة اللاتينية كانت له صيغ مختلفة أهمهـــا الصيغتان : amabo و dicam (سأحب وسأقول) وجاءت اللغة الفرنسية فأحلت محلها صيغة من بنية واحدة في كل أفعال تلك اللغـــة هي :J'aimerai je dirai, (سأحب وسأقول) . واذن ففي عـــلم الصيغ كما هو الحال في علم الاصوات تنطبق المعــادلات باطراد . وكل انحراف يتطلب تفسيراً خاصاً . وهنا أيضاً ليس للمعادلات قيمة مطلقة لأنها لا تصبح إلا بالنسبة الى لغة ما في مكان ما وفي زمن ما .

وأما عن المفردات فلكل كلمة حياتهـا المستقلة . فالتغييرات التي تصيب كلمة ما خاصةٌ بتلك الكلمة . فان اصابت غيرها لم يعدُ ذلك بعض الكلمات المجاورة لها في المعنى أو في الصيغة .

هناك معادلات عامة في المقابلات الصوتية وفي الصيغ النحوية بين فترتين من تاريخ لغة واحدة . واما المفردات فليست فيها أمثال تلك المعادلات . نعم انـــه من الممكن أحيانا ان نميز اتجاهات نحو الاستعارة أو نحو تكوين كلمات جديدة مشتقة أو مركبة، ولكن ذلك لا يسمح لنا قط بان نتنبأ بما يجب أن نتوقعه في حالة ما كما هو الامر في الاصوات وفي الصيغ النحوية . ثم أنه كثيراً ما يحدث ان تحظر العادات الاجتماعية استخدام بعض الالفاظ في بعض الملابسات

فنتج عن ذلك تغيرات فجائية تستتبع رد فعل بعيد الاثر . ولقد تقدمنا تقدماً كبيراً عندما عرفنا كيف نقدر اطراد المقابلات الصوتية المسمى اطراد القوانين الصوتية وكيف نقدر الدور الذي تلعبه الاستعارة في تكوين المعجم . ولكنه من الواجب ان تتلاقى عدة ملابسات متميزة بعضها عن بعض تمام التميز حتى نستطيع أن نؤكد ان كلمة ما تعتبر استمراراً لكلمة اخرى ثبت وجودها من قبل . فان لم تتلاقَ تلك الملابسات العديدة استحال أن ندلل على شيء . ومن الواجب في مثل هذه الابحاث أن نحسب حسابا لتاريخ الأشياء التي تعبر عنها الكلمات وحسابا لتغير العادات الاجتماعية . فتلك مسائل لا ينكر أحد أهميتها وأن كنا قد بدأنا فقط نحسب لها الحساب الواجب . وعلم أصول الكلمات (étymologie) من بين كافة أبحاث علم اللسان ادقها وأقلها يقيناً ومن ثم كثر فيه عبث الهواة .

من هذه المبادىء ترى ان كل مجموعة من المقابلات المطردة بين عدة لغات تتطلب تنظيما لتلك المقابلات فنحدد مصدرها لنرى هل أتت عن تطورات مختلفة لأحدى تلك اللغات أم عن تطورات للغة أخرى معروفة أو مجهولة . والمنهج واحد سواء أكانت اللغة الأصلية التي تطورت عنها اللغات التي ندرسها معلومة ، وهذه أندر الحالات أو غير معلومة . وعملنا في كل حالة هو وضع قواعد للمقابلات . ان النحو المقارن عبارة عن نظام للمقابلات . فالنحو المقارن للغات الاندواوربية نظام للمقابلات التي نلاحظها بين اللغات السنسكريتية والايرانية والارمنية والاغريقية واللاتينية والصقلبية

الخ ... والنحو المقارن للغات الرومانية نظام للمقابلات بين اللغات الايطالية والفرنسية والاسبانية الخ .. والفرق بين الحالتين هو اننا في المجموعة الثانية نضيف الى نظام المقابلات بين اللغات الايطالية والفرنسية والاسبانية الخ .. نظاماً آخر للمقابلات بين تلك اللغات وبين اللغة اللاتينية التي هي أصل لها كلها . واما في الحالة الاولى فانه لما لم تكن اللغة الاصلية معروفة بأية وثيقة قديمة فان هذه السلسلة الاخيرة من المقابلات لا تدخل في حسابنا .

احذر الجزم

وعند فراغنا من معرفة المقابلات يبقى علينا أن نحدد الوقائع الحقيقية التي تغطيها تلك المقابلات . وهنا تعظم المشقة . فبين الصيغة المشتركة التي تشهد بها الوثائق أو لا تشهد وبين اللغة التي نقارنها بها نجد فروقاً متفاوتة العمق . والوقائع التي تفسر هذه الاختلافات متباينة الانواع . والصيغ التي نضطر لتصورها وزجها بين الصيغ الثابتة بالوثائق تزداد رجحانا كلما كانت الفروق أصغر وكانت الوقائع المنثورة على الطريق الذي سلكته تلك التغيرات اكثر عددا . والصعوبة دائماً هي أن نحدد سبب المقابلات . اكان ذلك بمحض الصدفة ام انه يدل على وجود وحدة أصلية من أي نوع كانت ، وذلك سواء أكنا نريد أن نعرف هل ان لغتين من اللغات تعتبران استمراراً للغة واحدة أقدم منها او ان الوقائع المتقابلة في لغتين ثابتتي القرابة انما ترجع الى وحدة الاصل المشتركة او الى نمو كل منهما نمواً مستقلا او الى استعارة احدهما من الاخرى او استعارتيهما معاً

من لغة ثالثة . وفي الحق ان هذه الصعوبة في علم اللسان كما هي في العلوم التاريخية الاخرى كثيراً ما تكون مستحيلة الحل ، والعالم الشريف هو ذلك الذي يعرف كيف يحذر الجزم .

ومن ثم يكون من الواجب استخدام كل الوقائع الثابتة التي في متناولنا . ولقد غل بعض علماء اللسان بالقوة التي تمنحهم اياها وسائل النحو المقارن فجنحوا الى اهمال جزء من الشواهد التي تحملها الوثائق القديمة مكتفين بالمقارنة ما استطاعوا . ولكن الوقائع الدقيقة لا تلبث عندئذ ان تكذب في كثير من الاحيان نظرياتهم الطموحة التي تعجلوا بناءها . فيجب على مؤرخ اللغات أن يكون في دقة واحاطة أكثر فقهاء اللغة صرامة وصبراً . فاذا أردنا مثلا أن ندرس المقابلة بين ch الفرنسية في كلمة chèvre و k في الطليانية kapra والاسبانية ولغة البروفانس cabra الخ ... استطعنا ان نجد مرحلة دقيقة في نطق القرون الوسطى tchièvre . ومن ذلك نستنتج ان الـ k التي هي نقطة البدء في كل اللغات الرومانية قد أصبحت في الفرنسية ch بمرورها بـ tch ولغة فرنسا الوسطى التي تطورت فيها ka الى tchè ومن ثم chè محاطة بلغات لا تزال الـ k موجودة فيها كما هو الحال في اللغات الغالية الرومانية في الجنوب ولغات نورمانديا وبكارديا في الشمال . وليس باستطاعة من يجهل كل هذه الحقائق ان يجازف فيقترح نظرية تفسر تطور الـ k في أول الكلمات اللاتينية التي اصبحت فرنسية . والمثل الأعلى في أمثال تلك الدراسة هو أن نعرف لغات كل المجموعات الاجتماعية التي تتكلم اللغات التي ندرسها . والخرائط

اللغوية التي تخطط شبكات حلقاتها مختلفة الاحكام تبعاً للمسافات القائمة بين المواضع المدروسة تمكننا من أن نحدد على وجه متفاوت الدقه حدود الاماكن الموحدة اللغة Isoglosses ، وبمعنى آخر تمكننا من أن نحدد مناطق انتشار الخصائص المتعددة التي تميز لغات لسان ما. وهكذا يستطيع المشتغل بالنحو المقارن بالجمع بين النتائج التي تعطيها الجغرافيا اللغوية وبين الوقائع التاريخية المستمدة من النصوص ، يستطيع ان يصل الى انقاص عدد الصيغ التي لا بد له من افتراضها لكي يتمكن من تصوير تاريخ التطورات اللغوية . ولقد استطاعت الخرائط اللغوية بالفعل ان تجدد علم اللسان التاريخي في عدة نقط .

يجب ان تكون لنا نظرية عامة

ولكن لكي نستطيع أن نفترض صيغاً اكيدة وان نستخدم على نحو صحيح الوقائع الخاصة التي نجدها في الوثائق القديمة كما نستخدم الشواهد التاريخية والمقارنات بين اللغات المختلفة، لكي نستطيع كل ذلك لا بد من أن تكون لنا نظرية عامة . يجب أن نكون قد حددنا الطريقة التي يمكن أن تتطور تبعاً لها الوقائع اللغوية . وهذا التحديد غير ممكن ما لم تكن لدينا قواعد للمقابلات العديدة ، وذلك لان عالم اللسان لا يستطيع أن يقوم بتجارب . فهو لا يملك أن يجعل اللغات تتغير . وكل ما يستطيعه هو ان يلاحظ التغيرات التي حدثت فعلا . وعندما نملك مجموعة من الملاحظات المتميزة المستقلة في ميادين مختلفة وفي تواريخ متباينة نستطيع ان

تكتفي بالنظر في الملابسات العامة التي تستخدم فيها اللغات صوتا ما أو عامل صيغة ما لنستخلص من ذلك قواعد عامة الصحة وهذه القواعد لا تعبر إلا عن ممكنات ، إذ ان مدلولها هو انه اذا حدث تغيير ما لا بد أن يتم ذلك التغيير على نحو لا يعدوه الى غيره . فالـ k مثلا عرضة لأن تبلل، أي لأن يصحبها صوت صامت صغير يشبه الـ i (تلك التي نجدها في الكلمة الفرنسية : Cinquième) وهذه الـ k عرضة لأن تتطور الى tch أو الى : ts والـ tch والـ ts الى ch و s ولكنه على العكس من ذلك لا يمكن ان تتطور ch او s الى k او على الاقل لا يمكن ان يحدث هذا في ظروف عادية وعلى هذا النحو يمكن ان يوضع علم لسان تاريخي عام يكون عبارة عن نظرية للممكنات .

الوقائع اللغوية نتيجة عدد من الملابسات

ومن هنا نلاحظ ان الوقائع اللغوية المحسوسة ليست اشياء بسيطة بل هي نتيجة لتضافر عدد كبير من الملابسات . واليك مثلا مختصراً لن ننظر فيه الا الى الوقائع اللغوية البحتة .

لقد خلقت اللغة الفرنسية الشعبية أداة للاستفهام هي ti فنستطيع أن نقول : ? tu viens-ti وأصل هذه الأداة معروف وذلك لأنه تعميم للمقطع الختامي في جمل مثل ? vient-il . ولكي يمكن عزل ti كان من الواجب اولا ان تصبح الـ ti الختامية في صيغ الغائب لكل الافعال صامتة مثل الـ l في il الختامية وهذا تغيير صوتي ، وكان من الواجب من جهة أخرى أن الـ i (l) الختامية في ?vient-il تصبح

غير مفهومة كضمير بحكم ان الضمير القديم قد اصبح مجرد أمارة على ان الفاعل يوضع دائماً قبل الفعل فـ «l» i في i«l» vient قد فقدت كل استقلال لها ولم تعد الا جزءا من صيغة الفعل وهـــذا تغيير نحوي . ومن ثم لم يعد لـ ti في ? - i «l» vient او على الاصح في ? i «l» vient - i «l» اي قيمة ذاتية واصبح الطفل الذي يسمعها لا يرى فيها الا مجرد علامة للاستفهام واذا كانت ? i «l» vient - i «l» هي صيغة الاستفهام عن الغائب فان : ? tu vien «s» ti هي صيغة الاستفهام عن المخاطب تبعاً لمبدأ الاحلال .

عندما نريد تحديد اسباب التغييرات اللغوية التي لا ترجع الى الاستعارة (من لغـــة أخرى) يجب ان ندخل في اعتبارنا كل الممكنات العامة التي تحدثنا عنها ، ندخل الظروف الاجتماعيـة التي تكسب اللغـــة ثباتا أو تسلبها اياه ، وهي تلك الظروف التي تنتج جزئياً عن الحوادث التاريخية . كما ندخل تغيير عـــدد من الافراد يتفاوت قلة وكثرة للغتهم . واخيراً ندخل خصائص بنية اللغة التي تسمح لاحدى الممكنات العامة بالحدوث عندما يتفق ان تتضافر ظروف ما. ونحن لن نستطيع بغير تلك الملابسات المختلفة الانواع ان نصل الى وضع فروض راجحة عن اسباب التغيرات التي نلاحظها . والى اليوم لم نعثر على طريقة دقيقة تمكننا من تحقيق تلك الفروض. ومن ثم ظلت اسباب التغير في تاريخ اللغـــات من أقل الابحاث تحديداً . وسبب ذلك فرط التنوع في تلك الاسباب واختـــلاف طبائعها مما يستحيل معه ان نحددها بل وان نقدرها . ولقد حاول

الكثيرون بهـــذه الابحاث ولكنهم لم يصلوا قط فيها الى منهج .
ولربما استطاع علم اللسان العام بتدرجه نحو الكمال ان يسد على
نحو ما ذلك النقص .

مايـيـه

استاذ في الكوليج دي فرانس

التصميم الأساسي للغلاف: أسامة العبد

الإشراف الفني: حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة